مواعيد الذهاب
إلى آخر الليـــل
عبده جبير

◆ المؤلف: عبده جبير
◆ العنوان: مواعيد الذهاب إلى آخر الليل
◆ الطبعة: الخامسة 2020
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
2019 / 26480
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977 - 765 - 266 - 7

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form، or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

عبده جبير

مواعيد الذهاب إلى آخر الليـــل

رواية

آفاق - لامتان

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

جبير، عبده.

عبده جبير: مواعيد الذهاب إلى آخر الليل

القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2020

192 ص، 20 سم.

رقم الإيداع 26480 / 2019

الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 266 – 7

1 – قصص قصيرة

2 – جبير، عبده

ملاحظتان:

١ – استعان الكاتب ضمنيًّا بعدد من المراجع وكتاباتٍ لآخرين أخذها عن بعض الصحف بتصرف،

بعضها تمت الإشارة إليه في موضعه ولا يفوتنا ذكر بعضها:

الأهرام، الحياة، الشرق الأوسط،

الوطن، القبس، الرأي العام، العربي؛

وإحالات إلى: م. المخزنجي، ج. س. كوليس،

ف. الهاشم، ع. المرزوقي، ل. بقطر؛

علاوة على مواد من الإنترنت، والفضائيات العربية والعالمية، بعضها ضاعت أسماء أصحابها

مع الوقت الذي استغرقته كتابة الرواية خلال خمسة أعوام؛

لكن الكاتب يعترف بالفضل للجميع،

ولذا لزم التنويه.

٢ – كما لا يخفى على القارئ الأريب

أن (ف) تعني (فصل)

و(ب) تعني (باب)،

واختصرناها لدواعٍ فنية.

(باب)

في

ثياب الساعات

«لقد تطلعت من قبل في صفحات الكتاب المفتوح،
الكتاب الافتراضي،
فلم أرَ سوى صورة ذلك الحشد المتلاطم،
الخارج من البوابات الكبيرة،
لا يعرف إلى أين!
لا. ليس إلى سفينة نوح،
ولا إلى جنة عدن،
ولا إلى بلاد السندباد،
ولا إليَّ.
لكن إلى المحيط الذي أدى بهم إلى الصحراء».

مَن الذي قال يا تُرى: كم الساعة الآن؟ مَن كان صاحب الصوت؟ لقد التفتُّ ناحيته –وكان قد أدار لي ظهره– ولم أقل شيئًا؛ فلم أكن أعرف –على أي حال– أين يمكن أن نكون –أقصد في أي ساعة نحن–، لكننا كنا في وقت ما من الصباح، ربما بعد العاشرة بقليل.

كانت أمامي ثلاثة فناجين من القهوة فارغة، وقد اعتدت أن أشرب واحدًا كل ساعة (بالأحرى كان سلمان رشدي، عامل البوفيه الباكستاني، يأتيني بها حتى لو لم أطلب)، وأنا آتي إلى هنا في السابعة تقريبًا.

سلطان أبو حمزة هو الذي يحدد لي أول مواعيد الصباح، عند عودته من مطعم «تحرير الكويت» الذي يمتلكه لبناني، ومعه الطعمية الساخنة –التي لا يرضى عنها بديلًا لإفطاره–، يمر عليَّ، يخبّط عليَّ، عليَّ، على نافذتي (ثلاث مرات؛ كما هي ضربات المسرح)، ويقول كلمة واحدة: «اصحا».

غالبًا ما أكون مستيقظًا، وإذا لم أكن قد حلقتُ ذقني في الليل، فإنني أفعل ذلك في الصباح، مع بقية الطقوس: شريحة بقسماط محمصة أغمسها في كوب من الحلبة باللبن، وأتجرع بقيتها، وأخرج لأجده في عربته النيسان المتهرئة، وهو لا يزال يلوك بقية وجبته الساخنة، وعلى شفته «نتفة» من الطعمية، ونمر على ثلاثة آخرين، يتغيرون بين الوقت والآخر، نحملهم معنا ونحن في طريقنا لمكاتبنا، نسقطهم واحدًا بعد الآخر عند مكاتبهم، في الشويخ، حيث معسكر العمل الكبير.

لكن هل كان ذلك صوتًا بعينه؟ أراد –ربما– انتزاعي من الأضابير التي كنت غارقًا بينها؟ أم كان واحدًا من تلك الأصوات التي أخذت تهتف بي في خفوت، من بعيد (في تلك اللحظة التي أكون قد رفعت فيها نظارتي عن عيني) في الأيام الأخيرة؟

الأيام الأخيرة؟!

أظن أنه يجب العثور على طريقة للتخلص من هذا الطنين.

ربما لو أخذت الوقت في يدي –ولو من باب التقريب– حوالي العاشرة، الواحدة تقريبًا، لا، لم لا أتبع الطريقة التي تعودنا عليها في الشرق: بعد الظهر، في الضحى، في الصباح، أو من هذا القبيل، هكذا بكل وضوح، فسيكون هذا ربما، أسهل، وربما كان مفيدًا لحالتي الصعبة؟

لكنني على أي حال، تربيت –بالأحرى تعودت– أن أحدد

مواعيدي بتقلبات الليل والنهار، هذا أفضل.

ربما يكون هذا مناسبًا أكثر لي، أو لحالتي.

–الآن أدرك أنه لا فرق بين هذه الطريقة، وتلك الطريقة الشرقية–، لكن يبدو أن صوتًا مر من هنا.

ربما.

(ف)

كان الوقت –إذنْ– ضحًى.

أعتقد أنني في هذه اللحظة –في هذه اللحظة بالذات– قد توصلت إلى حل: أن أكتب رسائل إلى معارفي، أصدقائي، حبيبتي (عشيقتي بالأحرى) وخطيبتي السابقة، التي لم تستطع الانتظار طويلًا، فتزوجت، وإن بقيت العلاقة قائمةً بيننا.

كتابة رسائل كل يوم ستفيدني على الأرجح، ربما خلصتني من هذا الذي– ماذا يمكنني أن أسميه؟

لقد فكرتُ في العودة إلى مصر، ولكن هذا لم يبدُ حلًّا، – كيف لي وأنا هناك أيضًا فكرت طويلًا في العودة أصلًا إلى عصر إخناتون نفسه؟ حيث كانوا ينقلون الحجارة عبر الفضاء بالتحكم في الجاذبية الأرضية؟ –، فقد جئت إلى هنا، إلى الكويت –لا أقول ربما للبحث عن روحي في الصحراء؛ فلدينا هناك صحراء لا نهاية

لها–؛ لكن هربًا من ذلك الحال.

ربما.

لا أعرف.

(ف)

هاأنذا بعد لحظاتٍ أكتشف أنه ليس بمقدوري أن أذكر الأشخاص بأسمائهم –الحقيقية أعني–، سأكون إذنْ مضطرًّا للجوء إلى وضع أقنعة على وجوههم –ألسنا في مسرح؟، كل واحد، كل شخص، كل واحدة، ما يناسبه/ ما يناسبها، وكلًّا وحجمه، سواء هنا أو هناك؛ وهذه اللعبة تستهويني على أي حال.

ربما يكون اسم عامل البوفيه سلمان رشدي هو الذي أوحى إليَّ بهذه الفكرة، فهو على الرغم من كونه باكستانيًّا هاجر أهله من الهند، إلا أنه لا علاقة له بذلك الكاتب سيئ السمعة المطلوب للقتل.

ربما.

تلبيس الناس أسماء أخرى –من أسماء المشاهير حتى تكتمل لعبة الإخفاء؛ لعبة الأقنعة– ستكون لعبة مسلية، وأنا لا أجد أمامي حلًّا آخر سوى أن أتسلى، ربما حتى يعود إليَّ عصر إخناتون حيث كان الناس يستحمون مرتين في اليوم.

أنا أتسلى بالفعل، بقدر ما في هذا من طمأنة للنفس، بقدر ما هي وجهة نظر في الحياة؛ بدأت على هيئة وهم، ثم اعتدتها حتى أصبحت طريقة نظر.

كتابة رسائل ستكون..

الأفضل أن أبدأ الآن.

سأكتب في الكشكول الذي أهدتنيه ضحى –ولنسمها سعاد حسني– خطيبتي السابقة، ثم أفرغ الرسائل في الأوراق عند الإرسال.

بمَن أبدأ يا تُرى؟

إن عليَّ أولًا أن أضع كل شيء في سياقه، عليَّ أن أترك نفسي على سجيتها، تقييد الأمور –أو الذات– سيلحق بي أفدح الأضرار.

ما المشكلة إذنْ؟

المشكلة؟

لا أعرف، ربما لأن الوقت بدأ يضيع مني، إنه آه –لم تعد هناك إمكانية لاحتمال المزيد، إن كنت سأظل هكذا، فأظن أن الأمور سائرة إلى– لا أعرف. ها هي الكلمة قد نفرت من.. وفرض النسيان نفسه، تجسّد، انتصب، دون قصد.

لم يعد سوى ساعتين –أو نحوهما– على انصرافي من العمل، بالأحرى ما الذي يجعل شخصًا مثلي، لم يحمل في معصمه ساعة منذ 1973 متأكدًا من ذلك؟

أظنني سأشغل نفسي حتى الانصراف بمتابعة الإعلانات في الصحف –بعضها يجعلني أبتس–:

«للنساء فقط. سيدتي. سيدتي. سيدتي. –ثلاث مرات– خلطة سرية لتضييق –حولها شكل بيضاوي– النساء. لا يصاحبها –كذا– أعراض جانبية. أم خالد. بيجر ٩١٥٦٤٦٠ رمز ثلاثة أصفار.

وهذه على أي حال تسلية تعلمتها من محمود الجزار –الرمز: محمود المليجي–، هل قلت أبتسم؟ آه، إنه لا أحد يضحك هنا بصوت مرتفع، لا ضحك مجلجل، كل شيء ساكن في هذا الوقت من اليوم، النار مشتعلة في الخارج، أقصد أن الجو ملتهب جدًّا، وأنت لا تسمع سوى محركات التكييف شششششششش، ولا تشم سوى رائحة احتكاك عجلات السيارات بالإسفلت، كأنك موجود في جوف ماكينة لا تكف عن الدوران –الحداثة على أشدها!–، الجدران الصلدة سابقة التجهيز، الجدران المسلحة، النوافذ الألمونيتال؛ يا لها من فكرة في هذا الجو الصعب، الستائر التي لا بد منها –وإلا أكلك الضوء الساخن– الساخن ؟ لا، الملتهب؟ لا، المشتعل أفضل). (لا بد لك من أن تحتمي منه: تدخل إلى الظل، في الظلام) ألا يكفي كل ذلك؟ داخلك، أبدا، كل ذلك!

ولاء (الرمز: مديحة حمدي) كدت أنسي.

لا بد أن أكتب لها، لا بد، هل لا تزال تنتظر رسائلي؟ لقد قالت ذلك، حدثني عادل السيوي (صاحبي الذي يكتب روايات

صعبة الفهم، وتعرفت عليه من مقهى الحرية في باب اللوق منذ سنوات، وأصبحنا صديقين، ولم أفكر بعد في قناعه، قناعه هو بالذات، فبيننا خزانة أسرار، لو عرفها الناس لانخربت بيوت وتقاتلت تنظيمات)، قال:

–اتصلت بي، وقالت، عبرت عن رغبتها في الاتصال، أعني، أُف– (كم أنا مرتبك؟) قالت إنني لابد أن أكتب لها (على عنوان صديقتها الآنسة ليلى (شريهان) بقالة علي مبارك، لا، أظن أن من المفروض أن أكتب باسم الوالد، ومنه إلى الآنسة ولاء أيوب –خاص–، وهأنذا أجد نفسي (وشكرا لساعي البريد) في موقف غرامي سخيف، أشبه بالمواقف المملة في فيلم مقاولات (وعليّ أن أشرح الآن ما هذه المقاولات، وكان الأوفر أن أقول فيلمًا تجاريًّا رخيصًا وأخلص)، وبقية العنوان؟ أظنه: عطفة العروس، حارة الجمل، على ما أظن، أين دفتر عناويني؟ (إذ تصبح له الأهمية القصوى الآن) في البيت على الأرجح ، لكن المؤكد أن المنطقة هي السيدة زينب، القاهرة، واسم البلد طبعا.

أي بلد؟

رأى عادل أن أكتب لها؛ لأن الاتصال بها –تليفونيًّا طبعًا– غير ممكن، فارق السن الكبير بيننا يحول دون ذلك، إنني أخجل من الأمر، كيف بي – أقصد كيف كان سيكون، كنت سأذهب إلى والدها لأتحدث في الموضوع، والدها الذي يعاني من نفس المأساة

التي كنت سأكونها (الفارق بينه وبين أم ولاء يزيد عن ثلاثين عامًا)، وأنا –على الرغم من أن الفارق بيننا لا يبدو على هذا النحو– أظنه لا يزيد عن خمسة وعشرين عامًا، وهو ما يقره القانون الآن– كنت سأجد نفسي –لو حدث– في نفس الموقف.

ربما، فهو، على أي حال، وعلى الرغم من أنه هو الذي يقيم أود (أقصد يصرف على) الـ5 بنات، كلهن، كلهن، إلا أن موقفه كان صعبًا ، مَن يعرف بمَ كان يحس وامرأته بجواره تتحرق شوقًا؟ مَن يعرف؟ ربما لأنه لم يعد يستطيع الانتصاب منذ زمن (حكت لي ولاء؛ فهي وأمها تتحاجيان بكل شيء)، وربما كان ذلك هو ما جعل ولاء على هذه الدرجة من الجراءة، آه، فهي التي بدأت معي كل شيء: خلعت ملابسها، وأمسكت قميصي وشدته، جردتني من كل شيء (حتى الخجل) قطعةً قطعةً (وهو ما سأتحدث عنه بعد قليل) قالت: «اترك لي نفسك، وأنا سأفعل كل شيء»؛ إلا أن العم أيوب لا يتمتع بأي كلمة في هذا البيت، وسط الـ5 بنات وأمهن، قالت لي ولاء: «المسكين يعيش في مستعمرة حريم ، وإلَّا لما يكون عندنا كلنا «العادة»! تبقى ريحة الشقة كلها حيض، حيض».

(أذكر أنني لما لعبت معها من الخارج –ملامسة يعني– وكان عندها الإكس، ظللت أشم رائحة الحيض في كل امرأة أراها، حتى خلت أن علامة بيت الزوجية : رائحة الحيض في كل ركن).

(ف)

سأكتب فعلًا، سأشرح بالتفصيل كل ما هو عليه حالي، لا بد يا ولاء أن أوضح لك الموقف على الآخر، من اللحظة التي التقيت فيها محمود الجزار –هذا هو اسمه على الرغم من أنه يحب السمك– بدا كل شيء مختلفًا، إنه يستيقظ مبكرًا في الصباح، يحتسي الشاي المغلي مع السكر –يذكره هذا بقريته في المنصورة–، ثم يشرع في التخطيط تحت الإعلانات المهمة –من وجهة نظره– في جرائد الصباح، واحدة بعد الأخرى، ثم «يندار» على الجرائد المخصصة للإعلانات التي يأتي بها من البقال الإيراني (ميرزا) مجانًا، إعلانًا وراء الآخر، يدرس ويخطط (وأظن أنني بدأت شخصيًّا أقتنع بأهمية فعل هذا، «فبين سطورها»، قال، «هناك فرص سانحة تنتظر من يقطفها»، إنه فعلا يتابع ما بين السطور، إنه –على الأقل– يعتقد ذلك (ثم إنه لا يؤذي أحدًا)، وأنه سيكتشف السر الكبير الذي يقف بين– أقصد الذي يربط بين كل هذه الأحاجي السحرية (ربما كانت هذه فعلًا تمائم العصر) التي يعاملها فعلًا على هذا النحو، وكأن هناك شيئًا غامضًا عزيزًا مخبَّأً في قمقم– بشكلٍ ما.

يقول: لا بد أن هناك سرًّا.

أقول: كيف؟

يقول: يا رفعت الجمّال (هذا هو قناعي، أما اسمي الحقيقي فهو رفعت محمد، وهو اسم عادي كما ترى) يا رفعت، اسمعني، إن الهنود والبلوش لم يستوطنوا هذه البلاد، حتى قبل النفط، عبثًا، هل تعرف كم أسرة من الأسر الغنية، المليرديرات يعني، من أصل هندي، وبلوشي، كذا الفرس الذين تفاجأ بحجم وجودهم؟ لا بد أن هؤلاء جميعا لديهم ما يمكنهم الاستناد إليه من حجج.

أقول: آه.

يقول: ألا تراهم يمشون إلى الأمام؟ طبعا كل الناس يمشون إلى الأمام، لكن هؤلاء يمشون إلى الأمام بطريقة معينة، طريقة خاصة، أشبه بالدحرجة، إنهم لا ينظرون إلى شيء، إنهم يتطلعون إلى الداخل.

قال لي أمس الأول: هذا هو حلمي؛ أن أكشف سر هذه المشية.

لا أريد أن أشغلكِ يا ولاء به طويلًا، فهو صاحب فلسفة عالية لا يمكنكِ فهمها، وإن كان هو يستحق فعلًا كمية الضحك التي يضحكها، وأنا أحبه على الرغم من أنه لم يستمع أبدًا لكلمة واحدة من كلماتي.

السخرية؟

آه، أظن أنني توصلت إلى حل، أعرف أن الناس في شوارع القاهرة قد توصلوا لهذا الحل منذ آلاف السنين، لكنني حين أكتشفه في نفسي يصبح الأمر مختلفًا، وهو مدعاة للضحك على أي

حال، وهو جزء من وصيتك، يا ضُحى، على أي حال.

(ف)

جاء المساء.

كان الجو غائمًا بالفعل، أخذتني قدماي إلى الشارع الذي لم يعد يستند إلى سور، الشارع مهدّم السور، أظن أن خلفه أحد الأندية الرياضية، نادي القادسية بالأحرى، سمعتُ أنه موجود هنا في «حوليّ»، لكنني لم أسمع أبدًا صوت الجمهور من خلف السور، حتى قبل هدمه، لا بد أنه الحر.

الحر.. سر الوجود هنا.

ومشيت حتى عرقت، وأنا غارق في...

كانت نسمة خفيفة قد بدأت تخفف من وطأة الرطوبة، على كل إنني أعتذر لأن الجرعة أشد مما يمكنك تحمله (يا مَن: ولاء أم ضحى؟) صدقيني، إنني أحاول جاهدًا أن أكون مرحًا، عملًا بوصيتك (اضحكْ). أُحاول بشدة.

أراكِ يا ولاء تضحكين وتضحكين، والسرير النحاسي يهتز تحت خلفيتكِ المتماسكة الممتلئة –وأنا أتسلل بيدي إلى– حتى تنزلق كفي من شدة النعومة والدفء.

لكن لا يهم.

أعرف أنه ليس عليَّ أن أسترسل في النظر طويلًا.

(فَ)

(لقد تطلعت من قبل في صفحات الكتاب المفتوح، الكتاب الافتراضي، فلم أرَ سوى صورة ذلك الحشد المتلاطم الخارج من البوابات الكبيرة، لا يعرف –إلى أين، لا، ليس إلى سفينة نوح، لا، ولا إلى جنة عدن، ولا إلى بلاد السندباد، ولا إلى– لكن إلي المحيط الذي أدى بهم إلى الصحراء).

الصحراء مرة أخرى؟

لقد حاولت، هذه المرة جادًّا بالفعل، وأنا أمسك بيدي، فعلًا هذه المرة أيضًا، كتاب الباشا عاشق الصحراء، (يوسف كمال) أن أمحو ما في قلبي منها من –سمّه كرهًا أو خوفًا أو كونها رمزًا للجفاف، حاولت أن أرى ما رآه فيها الباشا من مرتع للروح ، مستندًا إلى ما رآه فيها الأقدمون من مسافة للزمن الأبدي، لكنني لم أستطع حتى الآن أن أمسك بطرف الخيط، وكل محاولاتي، بعدها، كانت مخلصة لإعادة النظر، وتمرين النفس، لكن الفشل كان من نصيبي.

أعتقد أنني حين وصلت إلى هذه المرحلة من العمر، كان عليَّ أن أقف قليلًا لأصلح من عدتي، كان صدري قد بدأ يصدر أصواتًا خائفةً، وكانت معدتي قد بدأت تتألم لأقل حركة، وكان قلبي يرتجف، فهل سيكون بالإمكان العثور على ميكانيكي رحيم ليقوّم هذه الآلة؟

(ف)

عدت يا ولاء إلى الناحية الأخرى من الطريق، صدقيني، إنني لم أنسَ أبدًا طعم شفتيكِ (اللدنتين كالكريز)، تذكرين أنني قلت لكِ ذلك –ونحن عاريان على السرير النحاسي–، قلتُ لكِ إن قبلتكِ ذكرتني –بعد طول جفاف– بطعم أول فم أبوسه، غضبتِ ساعتها، وعدتِ تسألينني عن وفاء، (يا إلهي، الحب الأول لا يمكن استبداله، وسيظل طعمه عالقًا بالنفس لا يمكن حذفه، لا يمكن استبداله، لا بولاء، التي أحبتني دون مقابل، ولا بضحًى –مشروع الزواج الفاشل–، ولا بنُهى –التي وقفت كبديل محتمل–، ولا حتى بالخوجاية الإيطالية باترتسيا التي قضيت معها شهرين في الفراش –وهي لا تكف عن استعمال فمها– عقب ليلة رأس السنة.

أظن أن عليَّ أن أجد طريقة للكتابة إليكِ، أقصد أن أنهي رسالتي إليكِ، وأن تصلكِ (من خلف بابا) وأن تقرئيها حتى النهاية، ولا يهمني عندئذ لو فرجتها لصاحباتكِ في طول السيدة زينب وعرضها.

(ف)

هأنذا أمشي عائدًا أدراجي –أدراجي؟!– على التلتوار المترب، أحس بجوربي وقد تعفن، الحر، الحر.

تصور؟

على المقهى، هناك مجموعة شبان (لا يبدو عند النظرة الأولى أنهم من الجالية، هل يبدو؟– يرتدون الدشاديش الكويتية البيضاء، والشماغ الأحمر بالأبيض المربعات، (لزوم طبيعة العمل الذي يمارسونه في المصالح الحكومية كمندوبين، حيث يتم التعامل مع الناس بناء على ملابسهم) يضحكون بصوت مرتفع، مجلجل، يجلسون على المقاعد الخشبية خارج المقهى، إنهم وحدهم الذين لا يتطلعون إلى شاشة التلفزيون العريضة، دونًا عن بقية الروَّاد.

المدهش يا ولاء أنني سمعتهم –وهم يجلسون خلفي– يثرثرون عن فتياتهم اللواتي تركوهن في البلاد، القاهرة، والمنصورة، وإلخ –وصُدمت يا ليلى، أقصد يا ولاء حين تأكدت أنهم أيضًا مثلي: مغتربون من مصر، لكنهم يبدون أكثر سعادةً، ربما بفعل الزمن، أقصد ربما لأنهم صغار السن، والحلم لا يزال يراودهم، الحلم أو الوهم، لا يهم ، المهم أنهم يعيشون في ظل هذا الشيء، هذا الشيء الذي فقدته، إنهم أكثر سعادة إذنْ، أقصد، ربما أقل اكتئابًا مما عليه

حالي، أو على أحسن تقدير– أف، ربما جاءوا بإرادتهم، أقصد..

الشاي ثقيل ومر.

معدتي تتقلب.

الجرسون هو أيضًا مصري خفيف.

أريد أن أتقيأ، الأفضل أن أتقيأ في البيت.

تلفّت حولي، وقمت.

مشيت ومشيت.

كان الليل قد جاء.

(ف)

فتحت الباب بصعوبة وأشعلت ضوء الصالة، رائحة الرطوبة، إنه موعد الصراصير، أقصد موعد تكاثرها، فالصراصير لا تنقطع في مثل هذه الشقق العزَّابي التي لا تدخلها الشمس، خاصة تلك التي تقع في الأدوار الأولى مثل شقتي، تلك التي يسمونها (ملحق).

دخلت غرفة نومي فوجدت أن الليل قد جاء فعلًا، تمددت على السرير، فخفّت التقلصات، ولم يكن لديَّ رغبةٌ في النوم.

سأكتب لكِ يا ضحى بحكاية (زيد بن عبيد) هذا طبعًا ليس اسمه الحقيقي، هذا الذي اختفى بعد أن مر علينا جميعًا، واحدًا واحدًا، كان ينفرد بكل منا، ليقرأ عليه آلام فرتر، أقصد هذه

الرواية، بصوت مشروخ ومكسور، انقطع منه فجأة حتى لم يعد يستطيع القراءة، فاختفى، لكنه ترك لي تحت عقب الباب ورقةً كتب فيها:

«أنا الآن صامت لا أتحدث مع أحد، في تلك الأمور، فتحت فمي مرةً واحدةً، قلت رأيًا عابرًا، فوجدت نفسي في جب، لن أتحدث عن هذا السر الخبيء، هذه الحادثة لن أتحدث عنها».

لمَ لا أكتب أيضًا إلى ولاء؟

أوحشتني ثرثرتها التي لا تنقطع ولا تكف مثل ماكينة طاحونة الدقيق؛ سأكتب لك يا ضُحى فعلًا، هل لا تزالين تذكرين رحلة القطار؟ الرحلة المجنونة؟

– أنتم يا مَن ستركبون!

– خذوني معكم.

– هل سيقف القطار على هذه المحطة أيضًا؟

– أي قطار هذا؟

– هل هو الطالع لتوه؟ هل ستركب أم تقف؟

– قطار التاسعة لا يقف سوى في النهاية.

– هل سنصل هناك في آخر الليل؟

– في الفجر أم بعد ذلك؟

– سنصل الإسكندرية حالًا.

– انظرْ، لقد حجزت تذاكر العودة! ما هذا الزحام؟!

– أخشى أن يقف، وعلى أي حال ستكون مصيبة لو تعطل (هأ. هأ. هأ)_ تضحك. لا تنسَ أنني ذاهبة معك دون علم بابا. أنت ذاهبة إلى خالتك على أي حال. خالتي ستراني بعد يومين (إنهم لا يحسنون حساب الأيام على أي حال) أليس كذلك؟ أم تريد أن تتراجع عن المغامرة؟

وجوه وجوه وجوه: رجرجات القطار وصوته الرتيب (لا. المنتظم أفضل) هل سنكون لوحدنا فعلًا؟ الليل بطوله. حتى آخره. حتى يطلع النهار؟ سأنام في حضنك. لا. لن تتهور. أليس كذلك يا رفعت يا حبيبي؟ اترك لي شيئًا أتزوج به. لن تفعل؟ إه؟ لمَ تنظر هناك؟ آه، أووم، أووم، إلى تلك البنت؟ جامييلة. حييلوة فعلًا. سكسي خالص. تذكرت، تحب الشقراوات؟ أنت تحب الشقراوات، وتقول إنك تحب السمراوات، لأنني سمراء (هأ. هأ. هأ) يعني أنت تحيي، أقصد تحبني؟ أصبغ لك شعري أصفر؟ كركم؟ الآن أسهل شيء أن تصبغ البنت شعرها بأي لون، بالأسود حتى.. هل تحب الأحمر؟ مثل تلك الممثلة في الفيلم؟ أم الأزراق؟ الهيبز من جيلك (يا عاجوز. هأ. هأ) ويمكن أيضًا الآن تفتيح البشرة، يمكنني أن أتحول إلى بيضاء كالحليب، لكن هذا سيفقدني نفسي، أنا أحب شخصيتي هكذا، قمحية، قليلة، ضعيفة، قصيرة، أنا فعلًا؟ مناسبة؟ أليس كذلك؟ لمَ لا تتكلم يا حبيبي؟ لقد قلت لي إنك ستتكلم، بمجرد أن نركب القطار ستنطلق في الكلام، أنت قلت لي

ذلك، أنت وعدتني، لا أحد ينظر هنا، لنا، ساعة السفر في القطار أحس أن الناس مهمومون، قلقون، ألا ترى لونهم؟ أصفر، هل لوني أنا مخطوف؟ شاحب يعني؟ في الصباح، وأنا أجهز الشنطة لأهرب معك، أقصد لأسافر، (هأ. هأ) كنت خائفة جدا، يداي ترتعشان، وقدماي مشلولتان، عجزت عن تحريكهما (كأنهما نائمتان) كدت أتراجع عن العملية، خفت أن تزعل مني، ستكون مغامرة حلوة على أي حال معك، وأنت ستستر عليَّ في كل الظروف، أنا واثقة من ذلك، لكن..

(ف)

نسيت أي الأيام هو.

ذهبت للعمل، فاكتشفت أن اليوم هو الجمعة.

لم أعد أذكر الأيام؟

أليس هذا مناسبًا لحالتي؟ حسنًا، يبدو الأمر مريحًا على أي حال، إن كان الوقت مهما بالنسبة لآخرين، فيكفيني أنا أن أعرف أنني الآن في الليل أو النهار، في الظهيرة أو الضحى، هذا يكفيني –إنني أؤكد عليه– ويناسب حالتي.

ما الذي يمكن أن أجنيه من معرفة أنني الآن في الساعة السادسة إلا الربع، أعني ما الذي يعنيه أن تكون الساعة الآن السادسة إلا ربعًا؟

هل لا تزالين يا ضُحى كما كنتِ؟ تراهنين على إمكانية عدولي عن عدم الزواج حتى اللحظة الأخيرة؛ حتى آخر نفس؟ هل لا تزالين على استعداد لترك خطبتكِ التي أُجبرتِ عليها؟ كآلاف الفتيات؟ (لا بد للبنت من أن تتزوج هكذا قلت، ضاحكة، هأ. هأ).

لكن!

بمجرد أن تهدأ حركة معدتي، التي حركها الشاي المغلي، سأكتب لكِ عن أشياء تحبينها، عن أشخاصٍ غريبي الأطوار (لا أعرف من أي رواية معتوهة التقطت تعبير «غريب الأطوار» هذا). على أي حال: تدربت في شغلي على عمل ملفات الموظفين، وهذا يجعل الأمور أكثر سهولة.

أول الأشخاص قد يكون علي الأشول (لا علاقة لاسمه بكونه أشول أو لا –وإن كنت لم أتأكد من ذلك، لأنني لم أره قط يكتب، لم أنتبه لحركة يديه، لكنني في المرة القادمة سأفعل، سأراقبه في المرة القادمة، سأتأكد).

علي الأشول يا ضُحى (سعاد) يعيش في حلم يقظة (سيجد الحقيبة السمسونايت المكتظة برزم الدولارات –لا أعرف لمَ الدولارات وليس الدنانير، على الرغم من أن الدينار أقوى من الدولار، ربما لارتباطنا بالأفلام الأمريكية) إنه لا يستطيع من حلمه فكاكًا، قال: حاولت لكنني لم أستطع.

(بالمناسبة هو شخص من العيار –أقصد الوزن– الثقيل المشعر،

يغطيه الشعر حتى يرتفع إلى منتصف رقبته، وكلما أحس بالغيظ من العالم، مال على الثلاجة وابتلع ما فيها، حتى الخضراوات غير الطازجة التي يشتريها بأرخص الأسعار من سوق الجملة الذي يسمونه الشبرة، حتى الكوسة والبطاطس، وربما القلقاس أيضًا، إنه لا يمضغ، لم أره يفعل: إنه يبلع).

هل تودين معرفة أوصافه؟ أظن أنه في نحو الأربعين (على حافة سن الخطر) أصلع قليلًا، الأفضل أن أقول خفيف الشَّعر في رأسه (على الرغم من غزارة الشَّعر في بقية جسده)، إنه أحمر الوجه أيضًا، وحاجباه غليظان (كثَّان!) فيهما شعيرات بيضاء، وأظن أن عيناه تميلان للخضرة (لم أحدق فيهما بتمعن، لكنني سأفعل) لكنه يعيش حلم يقظته ذاك علي أكمل وجه، إنه يعرف نفسه، حالته، جيدًا، يعيها، قال إنه يكاد يكون مرضًا سيؤدي به للتهلكة، وبالفعل ذهب للمعالج النفسي، ولم يجد الرجل في حالته ما يدعو للقلق، وكان هو طبيبًا مصريًّا أيضًا، قال له إن أغلب الناس (وربما كان يقصد أهل الجالية، أو ربما المصريين المسافرين) يفعلون ذلك، هذه الأيام (الحقيبة السمسونايت التي لا تفارق خيالهم)، وعليه فقط أن يشغل نفسه بشيء ما (لكن المعالج النفسي لم ينصحه بالعادة السرية).

يقول علي إنه لم يجد هذا الشيء الذي يشغله عن حلم يقظته ذاك، سوى هذه.

قال: إنه يأتيني، زاحفًا، أو طائرًا، أو متسللًا، (وفي كل وقت) سواء كنت في العمل أو في الشارع، في الحمام، أو الفراش.

هو أيضًا كأغلب الرجال (الذين لا يحبون المشاكل) هنا، يمارس العادة السرية، من اعتاد منهم على امرأته يضع صورتها –بقميص النوم الأحمر الساتان– أمامه، في الضوء الخفيف، في الضوء الوردي، ويفعل (بالصابونة أو على الناشف)، أو إذا كان هاربًا منها (مثل محمود الجزار وغيره وغيره وغيره، الآلاف منهم –الأغلبية كذلك– تصوري جيشًا من الرجال الهاربين من زوجاتهم)، فإنه يتخيل ماري؛ البنت الفلبينية (التي قالت إن اسمها ماري، ولا أحد يعرف الحقيقة، فمن عادات فتيات الليل المعروفة التخفي خلف أسماء وهمية، حتى تحدث الجريمة، وتنكشف الحقيقة) يتخيلها لأنها هربت منه منذ فترة (قال ضاحكا لأنها توجعت منه، لم تحتمل الهنك والرنك الشديد) البنت القصيرة الضيقة، المدورة –يقول إن أعضاءها لا تحتوي على عظام– مجرد غضاريف قابلة للطي: أقسم بالمصحف الشريف –الذي يحتفظ به ليقسم عليه– أن ماري طوت رجليها وساقيها وفخذيها، هكذا دفعة واحدة حتى ما خلف رأسها، ولم يعد في ملكته سوى وجهها بشفتيها المكتنزتين، وخلفيتها.

قال: إن المنظر لم يعد مقززًا بالنسبة له بعد/ بعد أن تعلمت كيفية إزالة (نتف بالأحرى) شعر العانة.

قال إنه هو الذي علمها كيفية عمل الحلاوة، حلاوة النتف، الحلاوة البلدي على الطريقة المصرية.

وجاء بورقة مكرمشة انتزعها –على ما يبدو– من إحدى المجلات النسائية، وقرأ:

المقادير:

١ كوب سكّر.

٢ كوب ماء.

٣ ليمونة صغيرة زمهرير.

الطريقة:

ـ ضعي الماء في كزرونة، وضعيها على النار حتى تغلي، أضيفي السكَّر على الماء المغلي. حركي الخليط بهدوء وخففي قوة النار حتى يغلظ المحلول، ثم أضيفي عصير الليمون.

ـ اتركي المعجون يبرد، ثم استعمليه قطعة قطعة حتى تمتلئ القطعة بالشَّعر المنزوع مع تبليل يدكِ بالماء، حتى لا يلتصق المعجون بأصابعك.

قال: وجاءت البنت ماري فرحة وناعمة كالحرير، رفعت جونلتها واستعرضت النتيجة.

قالت: لقد أعجب هذا زبائنها (الكويتيين منهم خاصة).

كذاب؟

لا أعرف يا ضُحى ما إذا كان كاذبًا أم لا. كل ما أعرفه أن دمه

خفيف. يضحك كثيرا. يضحك طوال الوقت. خاصة قبل أن يدخل في موجة من الكآبة (حين يحس بالحنين إلى البيت)، عندئذ يصبح صعب المراس.

نسيت أن أقول إنه مثل الآخرين، يقومون قبل السفر بجولة للأسواق لشراء الهدايا، وأهمها: الملابس الداخلية، الساتان، المثيرة، الملونة، الصغيرة .

(ف)

لا بد أن الليل قد تقدم. تقدم جدًّا:

فتحت عيني على ضوء التلفزيون. لا بد أنني نمت مستلقيًا على الصوفا بقية المساء. لا بد أنني لم أكمل مشاهدة برنامج المسابقات، على الرغم من المذيعة اللبنانية الفاتنة والتي تضحك طوال الوقت، وتتكلم بلهجة بدوية بلا سبب، ومساعدتها/ مساعدتها لا تكف عن إظهار فخذيها.. في أغلب الحلقات ترتدي الميني جيب، وفي البقية بنطلونًا محزقًا محزقًا يبدو منه بوضوح كل شيء.

للأمانة، للأمانة يا ضُحى أن هذه المذيعة سرقت الرجال من زوجاتهم، وسرقت النوم من أعين الزوجات (مشكلة يعني).

وقد أثار هذا –تصوري يا ضحى– فأنا أعرف أنكِ لا تطالعين الفضائيات لأنه ليس لديكم دش في بيتكم، أثار في إحدى

الفضائيات جدلًا ساخنًا بين نساء مصريات (بعضهن مذيعات بدا أنهن غيورات) وقالت إحداهن في برنامج الـ«توك شو» هذا: إننا لا نفعل هذا، لأننا لا نريد أن نفعل، ولو فعلنا لسرقنا الجو، لكننا لا نفعل، ليس لأننا سمينات، كما تشيع بعض الصحف، بل لأن عندنا حياء.

لكن مذيعة مصرية تعمل في تلفزيون الكويت كانت تثير الرجال أيضًا، على الرغم من أنها لم تكن ترتدي الميني جيب، بل بنطلونًا محزقًا، وتسببت في مشاكل زوجية، حتى إن إحدى الكويتيات ذهبت إلى مجلس الأمة وطلبت طرد هذه المذيعة من البلد؛ لأن زوجها يتركها وينصرف للفرجة على بنطلونها، وحطمت جهاز التلفزيون.

التلفزيون؟

أنا نفسي أحس بأنني يجب أن أحمي نفسي من الإدمان، يكفيني الدخان والعادة..

لن أترك نفسي حتى أصل إلى حالة ثروت فخري.

تصوري يا ضُحى: إنه يترك التلفزيون مفتوحًا حتى في غيابه عن شقته (تلك التي كانت بالأحرى ملحقًا يسكنه بوَّاب العمارة، لكنه أصلح حاله وزيَّن الجدران بصور المذيعات نجمات العصر، ويقول: فيللتي الصغيرة الجميلة).

مَن هو ثروت فخري؟

سأحدثكِ عنه في الوقت المناسب. يا.. يا.. ياه.. حكايته حكاية.. المهم.. ثروت هذا لا يفعل شيئًا بعد أن يعود من العمل، سوى التلفزيون. يفتحه ٢٤ ساعة في اليوم (قال إنه لو وجد في اليوم ساعات أخرى لجلس أمام جهازه العزيز)، وطبعًا هناك الفيديو، وشرائط الفيديو، أقصد البورنو.

رأيته يخبئ الآلاف منها، صدقيني، الآلاف، صحيح أنني أبالغ أحيانًا كأي ابن كلب متشرد في بلاد الله خلق الله، لكن صدقيني هنا، فأنا حين أقول الآلاف، فإنني أعني ذلك تمامًا، الآلاف، لقد رأيت هنا، على أي حال، كميات هائلة منها، لا عند ثروت فقط، بل في كل مكان، في كل بيت دخلته، لا يمكن أن تكون هذه الكميات موجودة في أي مكان آخر في العالم: تحت المقاعد، خلف رزم الصحف الإعلانية المكدسة في الأركان، في صناديق كرتونية مغطاة بالملابس، مدسوسة تحت الأسرة، خلف مئات زجاجات الكوكاكولا والسفن آب في المطابخ. في الحمام بين الملابس الوسخة. في جيوب البنطلونات المعلقة في الدواليب وعلى الجدران وخلف الأبواب، تحت أحواض الغسيل، وحتى في أكياس البلاستيك خلف سلال الزبالة، هنا وهناك.

لكن ثروت فخري، صاحب الوجه المسحوب الذي لا يمكن إزالة الشَّعر عنه، صاحب العينين الضيقتين والقامة القصيرة، العصبي، المبتسم (دائمًا بعصبية) لم يكن فقط مدمنًا للشرائط،

لا، إنه عاشق، نعم، عاشق متفرغ لرؤية الصور، صور الأجساد الساخنة، المتداخلة، والأعضاء التي تنز بالعرق، تنداح منزلقة يتصاعد منها الغبار، أقصد البخار: شفاه غليظة تتلو أقدامًا تنقبض، وأيد ترتفع متشنجة أصابعها تستغيث، أعين مغمضة تفوح بالتوهان. زجاجات تتسرب في الأعضاء التي ينز منها الدم، سلاسل تلف أجسامًا عاريةً. أحدهم يضرب أحدهم بالسوط الذي يطرقع مع تأوهات مدوية. أصابع ضخمة من المطاط تدخل وتخرج.. أزيز.. أزيز.. أزيز..

ولأول مرة أتعرّف، أرى، بأم عيني، ما كنت أسمع عن وجوده في هذا العالم (صنعة مجتمع الرفاهية القادم من الغرب) الجنس الثالث، نساء بأعضاء ذكرية وأثداء نساء، ورجال بأعضاء نساء وعضلات رجال.

قال: قد يكون هذا مقززًا بالنسبة لك، لكن الناس هنا، الناس الغرباء، فقدوا سيطرتهم على كل شيء، لم يعد هناك سوى هذا الشيء، فكل شيء هناك كان هنا أصبح لا شيء.

ماذا؟

قال: هذا هو الحال، فكيف لك أن تصعد إلى التل دون أن تنكسر نظرتك من اللهب؟

ومع ذلك فالأذان يصدح من مئات المآذن.

وداخل المساجد حلقات من المؤمنين الذين نذروا أنفسهم

للجهاد في سبيل الله.

الأغرب أن علي سليمان كان أحد رواد هذه الحلقات.

(ف)

ولا بد أنكِ تتساءلين يا ضُحى: ما علاقة ثروت فخري بعلي سليمان هذا؟

علي هو الساحر هنا. الأستاذ الذي يملك حججًا لا تنتهي عن أهمية الصورة.

يقول: كوننا في عصر الصورة هذا أمر منتهٍ نهائيًّا ولا يُناقش، ويغمض عينيه أكثر، لا يُنااقش.

صياد لا يكف عن الشرح. داعية لا يكف عن الكلام. ما إن يقع الشخص، أي شخص، تحت عينيه حتى تأخذه الجلالة ويبدأ في الكلام. قلت كلام ؟ لا. في الخرير الذي لا يتوقف. إنه يخر يا ضُحى كالصنبور «الخربان»، ولا يكف ولا يكف ولا يكف، لا يتوقف حتى يأخذك كليًّا إلى عالمه الساحر.

«عالمي الساحر»..

يقول. يصف. عالم لا يمكنكِ حين تدخلينه أن تخرجي منه؛ لأنه... لا أعرف.

علي سليمان هذا يقول إنه أديب متخفٍّ، وأقسم أنه نشر مائة

قصة قصيرة في جريدتي «الأهرام» و«الجمهورية»، لكنه للأسف لم يحضر معه منها، لأنه جاء خطفًا، في يوم وليلة حصل على الفيزا والتذكرة والعقد وكل شيء، وجاء حتى دون حقيبة، مجرد «هاند باج» صغيرة، التي هي معه دائمًا (لا يُفارقها حتى وهو في الحمَّام)؛ لأنه يحمل فيها كراريس يقول إنها مخطوط رواية عظيمة عن قريته في النوبة، وخلف الكرَّاسة، في الحقيبة، دائمًا هناك شريط فيديو.

هل أقول إن ثروت فخري وقع ضحيته؟

ربما.

علي يعمل، في الظاهر، في محل فيديو في سوق السالمية (في الجزء المتواضع لا الجزء الذي تعرض فيه، بعض المحلات، بعض القطع النسائية بمبلغ يوازي راتبي لمدة خمسة أعوام، وهي التي لا يمكنك دخولها إلا «شمشمة»، وفي أوقات الزحام، وغالبًا تنزاح للخارج بـ«صنعة لطافة» من صاحب المحل الذي هو غالبًا سوري أو لبناني)، لكن علي سليمان يعمل في الواقع في شقة سرية (في أحد المناطق الخارجية) –خارج سور الكويت القديم الذي يفصل المناطق الحضرية عن البدوية، وهو ما لم يعد له وجود إلا في بقايا أثرية، لكنه موجود على الخرائط التاريخية، كما توجد خطوط الطول والعرض على الخرائط الجغرافية، بالإضافة إلى وجوده في نفوس الكويتيين.

على كل حال، فإنَّ أحدًا من الشلة لم يرَ علي سليمان في أي من المكانين، السري والعلني، لقد سمعنا (الحكاية) منه.

هناك على الأرجح وكر لنسخ هذه الشرائط القادمة من روسيا المعاصرة على الأرجح.

حين لا يكون ثروت موجودًا، ولسبب ما، يحلو له أن يحكي الحكاية بدقة وتلذذ.

: الجسد هو كل شيء. يمكنك أن تدخل عالمه وألَّا تعود (وهأنذا أعرف لأول مرة أن للجسد هذا ممرات خالية منها.. أقصد من الروح) يمكنك أن تذهب وألَّا تعود. تتوه في متاهته.

: يضع الشريط في جهاز الفيديو.

(يبدأ انسياب الأجساد البيضاء أولًا –لأن هناك أجساد سوداء. سمراء. صفراء– البضة أولًا– لأن هناك الرشيقة. الغليظة، والنصف نصف).

الشرح من خارج الشاشة:

انظر. تطلع. هكذا تبدأ الحكاية: نظرة. إنها نظرة دائمًا هي تلك التي تبعث الرسالة (التي هي في هذه الحالة رسالة خالصة بلا شيء آخر خارج الملموس) عبر موجة كهربائية غير منظورة، لكنها هناك، هنا: محسوسة بالأحرى. قمة التركيز في حزمة الآخر. «لا تصدق»، يقول: «إن الآخر حتى ولو كانت بغيًّا محترفة لا ترسل هذه الأشعة، حتى ولو كنت الرجل العاشر في أمسيتها».

الكلام عن أن بعضهن يفقدن الإحساس بالتكرار غير صحيح، أؤكد لك، غير صحيح بالمرة.

(يتنحنح).

لقد استطلعت الأمر.

سألت الكل قلن إنهن يشعرن به، بعضهن، في البداية، يقلن إنهن يفقدن الإحساس، هذه مشكلة لغوية. مشكلة تعبير أعني. لا أعني الإحساس، بل المتعة طبعًا، لكنهن يحسسن بالتأكيد، وإحداهن –كانت مصرية بالمناسبة– قال ذلك لأن اللبنانيات والروسيات منهن يسيطرن على سوق الخليج –وتعمل مذ كانت في الخامسة عشرة– بداية من المهندسين، ثم مصر الجديدة، ثم خرجت ضمن الموجة الثالثة من أفواج المهاجرين، لترفع من مستواها، بالأحرى: تعمل تحويشة العمر، أقصد تؤمّن مستقبلها في حياة أفضل، التحويشة التي تنفعها حين تصبح عجوزًا كركوبةً لا يقربها أحد، ولا حتى العواجيز من الرجال، المهم، هي اعترفت بأنها كل مرة تحس، وفي البداية كانت تمل، لكنها وجدت طريقة لتدريب نفسها على أن تستمتع (في كل مرة) بدلًا من أن يذهب مجهود الرجل هباء، ثم إنها اكتشفت، مع الخبرة ومرور الزمن، أن الزبائن يشعرون بهذا (تقصد بالملل)، وبالتالي تفقدهن بسرعة، لكنها حين تحس، فإنه يحس، ويستمتع، فيعود إليها (أليس هذا هو الجدل؟) ولو بعد حين.

إن هذا يدخلها في الحالة الأخرى، قلت لمَ لا تضع على وجهها قناع نادية الجندي؟ لا. إنها خنـ.. الأفضل أن أطلق عليها شمس البارودي، فهي كانت، على كل حال تشبهها حسب وصف علي، حين كانت في شبابها الوافر. المهم، بدأت تدخل في حالة أخرى من الإدراك، وجاء، طبعًا مع الزمن، بالأحرى مع مروره: في اللحظة الخطرة حين تحس بأنه يكاد يفلت من بين أصابعك، مع الشعرات البيضاء الأولى في سالفيك، في رمشيك.

مرحلة الإدراك هذه (الصوت لا يزال مستمرًّا من خارج الشاشة بينما الصور تتوالى) وحتى أكون دقيقًا، كان المشهد قد استمر بعد أن تم خلع الملابس قطعةً قطعةً. إلى أن رأينا الرجل، بالأحرى: عضـــ...

عندئذ أصاب أنا بالاشمئزاز.

بينما يتطلع هو بإعجاب، خاصة وأن الأطوال قد تتجاوز العشرين والثلاثين سم، يهتف باسم..، ويجدف بكلام لا يصح.

المهم، مرحلة الإدراك هذه دفعت –شمس البارودي– لا أعرف لم لا يذكر اسمها الحقيقي –كما قالت– إلى أن تمتلك القدرة على الاستمتاع كل مرة، ومع كل شخص، سواء كان هذا زبالًا تفوح منه رائحة الطماطم العفنة والبصل النتن، أو رجل أعمال –يقصد نموذجًا عصريًّا للرجل الغني– تفوح منه رائحة عطر فرنسي (ذكر أنه «شانيل على وجه التحديد) عطر الرجولة الخالص –لأنها، والإنسان مخلوق

قادر على التكيف مع كل الحالات، قادر على امتلاكها واستنطاقها أيضًا– إن لم تفعل، تتحول حياتها إلى جحيم.

كيف –يقول من خارج الشاشة، بينما شريط الصور يتوالى– أقصد أن الجسد يتحرك وينبطح فوق الآخر، ليس بالضرورة أن يكون الرجل في المرتبة العليا) فهناك دائمًا تغيير في الأوضاع، تغيير أوضاع يساعد على الوصول، يطرد الملل الذي يمكنك أن تحسه مع زوجتك التي انقضى لك معها على نفس الوضع نصف قرن. تصور؟ –وهنا أحيلك إلى الدكتورة فوزية الدربع، أستاذة السكسولوجي التي تكتب الرسائل في الموضوع، وتنشرها على حسابها، محاولة أن تشرح الموضوع للخلق في الكويت، حتى لا يضلوا.

الآن وصلت الصورة إلى الضرب الشديد والتأوه الواصل إلى حد الصراخ: الجباه عرقى والأفواه مشرعة، ترغي بالزبد، ثم يسحب.. لا أعرف لمَ، وددوب.. على الجسد الملتهب ينساب السائل حتى يصل إلى الفم الذي يخرج منه اللسان –كما الأفعى– ويلحس ويلحس بتلذذ، أخ. اتفو.

وأنا هنا أعود للاشمئزاز، لكن علي يقف مصفقًا بيديه ويجدّف بكلام خارج.

ينقطع الشريط رديء التسجيل –إلى غرفة بها ثلاث نساء ورجل واحد كل منهن تمسك بجزء من جسده، وفجأة –بكل

ابتذال- يدخل رجل أسود مفتول العضلات، من فصيلة كمال الأجسام -ضخامها بالأحرى- وأمامه ماسورة تتقدمه، يقذف منها ماء يغرق النساء الثلاث، والرجل، والسرير، فأتقيأ.

بعدها، لم يغفر لي علي هذا أبدًا، حتى عشت عدة أسابيع في رعب، فأنتِ يا ضُحى لا تعرفين هؤلاء الناس، إنهم أخطر أنواع البشر: أصحاب النظريات هؤلاء؛ لا يتورعون عن القتل إذا أحسوا، ولو بالخطأ، أنكِ تقفين في وجه عقيدتهم.

آه. لقد طال الحديث عن هذا الوغد.

عليَّ أن أريح جسدي المتعب. عليَّ أن أرتاح.

(ف)

في الصباح الباكر، في الغرفة:

اليوم هو الخميس. لن أدع شيئًا -أو أحدًا- يبدد يوم عطلتي هذا، سأمتلكه وحدي. (امتلكه وحدك يا رفعت الجمال).

أجمل الأشياء هنا أنك تحصلين على يومي إجازة كل أسبوع، عكس ما يحصل في مصر، ليس لك إلا يوم الجمعة.

ياه. كنت قد أوقفت حالي دومًا أمام الزمن، وها أنذا أكتشف الآن المكان: الزمان والمكان، ما الذي يجعلهما هكذا متلازمين مع بعض؟ هذا أفضل على كل حال.

دخلت الحمام، وأصلحت من حال نفسي (حال نفسي فعلًا): حلقت لحيتي وعانتي وما تحت إبطي. تناولت دوشًا ساخنًا –الماء ينزل لوحده ملتهبًا من الصنبور، وفي لحظات يمكنه أن يلسعك– لكنه كان ماءً دافئًا على أي حال، يبدو أن الجو في الخارج في حالة تحسن، من الأفضل ألا تقول ذلك لأي كويتي تراه؛ لأن عندهم عقدة الجو، فلا أعرف لماذا يغضب بعضهم حين تقول إن الجو نار أو من هذا القبيل، كأنهم المسؤولون عن الحر لا الخالق، آه لو قلت إنه جو مرعب! سيكون جوًّا طيبًا على كل حال، فلمَ أفسد صباح عطلتي بهذه الخزعبلات؟

وتجففت بمنشفة –هل هي منشفة أم فوطة ؟– منشفة بيضاء نظيفة –فأنا أهتم بمناشفي جدا. أحب أن تكون دائمًا ذات ألوان زاهية، ودائمًا نظيفة، ومعطرة أيضًا، بالضبط كما أهتم بنظافة سريري وملاءاته: أحب أن تكون أيضًا بيضاء ونظيفة. لا. في الحقيقة إن اهتمامي بسريري يتجاوز هذا الحد إلى درجة أنني فكرت أن أكتب رسالةً أو بحثًا أو من هذا القبيل عن الموضوع أسميه «أنا وسريري».. المهم، ارتديت «سليب» أبيض أيضًا وقميصًا قطنيًّا نصف كم (صنع في مصر، لا من باب وطنية الصحف، ولكن لأن القطن المصري جميل بالفعل) لون القميص كاكي على جينز حائل (من باب العصرية)، وأحكمت قدمي على حذائي الجلدي، وأصبحت في أحسن حال.

تعطرت من زجاجة الأو سوفاج (ذلك العطر الذي أحبه والذي عرفتني عليه في الحقيقة أول مرة البنت الإيطالية باترتسيا)، وأصبحت في أحسن حال.

أحسن حال فعلًا.

فتحت الشباك. لم يكن الجو ساخنًا جدًّا، فقلت لأنزل اليوم إلى المدينة: أعني ذلك الجزء الذي يوحي بأنه مدينة فيها بعض الناس.

ليس هناك صعوبة كبيرة في أن تجد وسيلة نقل «غير شرعية» تقلك إلى حيث تريد؛ لأنه ممنوع على التاكسي أن يقف ويقلك من الطريق، فعليك أن تطلبه بالتليفون، الأمر الذي لا تسمح به ميزانيتي، (كل الناس يسألونني لمَ ليس لديك سيارة ؟) على الرغم من رخص السيارات المستعملة، والحقيقة أنني لم أفكر في الموضوع، وقد سهّل الأمر سلطان أبو حمزة مقابل ثلاثين دينارًا يتقاضاها مني في السر –كل شهر– ليقلني من البيت إلى العمل وبالعكس.

وقفت على الرصيف للحظات بطريقة توحي أنني أريد «توصيلة»، فوقف سائق عربة وانيت ربع نقل (تلك التي يقودها غالبًا شخص من فئة البدون، غالبًا من المناطق الخارجية، يسعى على رزقه، ولا يغشك لباسه: الدشداشة والعقال والشماغ، فقد يكون فقيرًا لم يتناول إفطاره بعد)، لكنني كنت نازلًا إلى المدينة،

لأتفسح فلم أجد هذا مناسبًا وأشحت وجهي عنه فابتعد، فأنا لست في حالة تسمح لي بمشاكل مع البوليس الذي يتعمد دومًا القبض على هؤلاء البدون، وهم متلبسون بجريمة توصيل الناس بشكل غير شرعي.

لا تسأليني يا ضُحى عن مشكلة البدون هؤلاء، فالموضوع طويل وعريض، فهم يقولون إنهم من هنا، والبوليس يقول إنهم من بلاد أخرى، لكنهم مزقوا بسبوراتهم ليبقوا ويتمتعوا بخيرات البلد، والحقيقة أن بعضهم هكذا وبعضهم هكذا، وهذا ما قاله لي أبو محمود صاحب العمل وهو كويتي طيب.

وكانت عربة لادا قد هدّأت من سيرها على الجانب الآخر من الطريق. ابتسمت لسائقها الذي بدا مبتسمًا هو الآخر على غير العادة (فأغلب الوجوه هنا عابسة)، أشار إليَّ ووقف على جانب، وكان عليَّ أن أعبر الطريق للجهة الأخرى من التلتوار، فتحت الباب وجلست بجواره. من اللحظة الأولى أدركت أنه مصري (أغلب المصريين على أى حال يركبون اللادا) بعد لحظات من الصمت قال لي إن اسمه علي وسألني عن اسمي، حتى إذا أوقفنا البوليس، نقول إننا أصدقاء، لكنني تجاهلت سؤاله، فكيف للمرء أن يصبح في علاقة بسبب البوليس؟ سألني عن وجهتي فقلت إنني نازل البلد، (كما لو كنت في مصر الجديدة ووجهتي ميدان التحرير)، ضحك وسألني: تعني الكويت؟ فقلت: آه.

عرفت بعدها أنه نجار مسلح له هنا سبع سنوات، لكن أحواله الآن (دائمًا الآن) ليست على ما يرام بسبب خلافات مع زوجته (دائمًا تظهر الخلافات مع الزوجات في مثل هذه الحالة) بدا أنه يريد سرد قصته، لكنني أبديت له عدم رغبتي في الخوض في التفاصيل في هذا النهار الذي قررت أن يكون ملكي وحدي، فغيّر الموضوع، وسألني عن عملي، فخطرت ببالي الفكرة التي عاهدت نفسي عليها سابقًا؛ ألَّا أبوح لأحد بطبيعة عملي (لا لشيء إلا لأنه عمل تافه يحسن تجاهله، ويكفي أنني أعيشه كل يوم ثماني ساعات أعانيها وحدي، فقلت له إنني أعمل في وزارة الداخلية (ولم يكن هذا صحيحًا بالطبع)، وأن اسمي أبو علي (هكذا وجدت لنفسي قناعًا، والناس هنا جميعا يسمون أبو فلان، فلمَ لا أكون أنا أبا علي؟).

أخيرًا أفلتّ منه بأعجوبة، خاصة وأن أحاسيسي قد ازدادت رهافة حيال ما يطمح إليه البشر. لا. أقصد حول ما انتهت إليه حالهم: إنهم ينصبون لك الشباك، وقد تسقط فيها، وعندئذٍ يصبح همك الأكبر –أو شغلك الشاغل– كيف تتخلص منها، كيف تمزق الحبال المتشابكة حتى تخرج سابحًا من البحر المحيط إلى السطح، وربما استمر الأمر ككابوسٍ لا تصحو منه إلا وأنت جثة هامدة، لكنني نجوت، لم أنصت لبقية حديثه، قصته، ودفعت له أكثر مما يجب –حتى لا يكون هناك مجال لكلام آخر–، ونزلت قبل أن أبلغ

النقطة التي نويت النزول عندها.

لقد وعدت نفسي وهأنذا أفي لها بوعدي: هذا اليوم يومي. إنه وقتي الخاص. لن أدع الآخرين يسلبونه مني.

هأنذا أقف يا ليلى، أقصد يا ولاء، على التلتوار، في صباح رائق نادر، ليس هناك حر أكثر من المعتاد (في ديسمبر). ليس هناك رطوبة خانقة. بل ليس هناك بشر –أعني في الشارع الذي أقف فيه وأظن أن اسمه شارع الجهراء–، وهأنذا ألمح مجمع المثنى التجاري وأمامه فندق المريديان، حيث يقبع بجواره مقهى السيجال الصغير الهادئ –يبدو وكأنه انتزع من الإسكندرية–، هنا يمكنني أن أشم رائحة المدينة، وأنا أتطلع للزبائن المتوحدين مثلي –يدسون وجوههم في الصحف، التي هي شيء مهم في حياة الناس هنا– ولكن هذا هو فعلًا ما عليه حالهم: هل يمكنني أن أقول إنهم أشخاص كزموبوليتان؟ أشخاص متشابهو الملامح، وإن كانت الملابس مختلفة، هذا لا يعني بالطبع أن هذا ليس كويتيًّا، والآخر إنجليزيًّا، وذاك أستاذًا جامعيًّا مصريًّا كما يبدو، لا. إنك بعد التدقيق ستكتشف هذا، لكن هناك ما يجمع بينهم، شيء ما مشترك، ربما هي تلك الصفة.

جلست فجاءت الجرسونة الفليبينية المطأطأة مبتسمة من القلب، فعلًا، (ماذا يمكنني أن أقول؟)، وقالت بإنجليزية أهل آسيا:

–نعم سيدي.

طلبت قهوة «إكسبرسو» وماء، كانت ترتدي جونلة ترتفع فوق الركبة بإصبعين، ولاحظت أن ساقيها لامعتان، و.. لا بأس بهما.

على أي حال، كنت قد تعودت منذ التقيت ماري في بيت علي الأشول أن أكف عن التفكير في كل فليبينية باعتبارها موضوعًا جنسيًّا وفقط، على الرغم من أن الموضوع لا يدعو إلى هذا الحد من الإزعاج، على الأقل بالنسبة لأغلبهن.

كانت ماري قد كشفت عن وجه آخر؛ أخذت تتحدث عن الرسم والعمارة، عن الشِّعر وتنسيق الحدائق، طبعًا أرادت عامدة أن تستعرض ثقافتها –ربما لأنها لمحت في يدي كتابًا–، لكنها أبدًا لم تعلن ترفعها عن حياتها المزرية.

أين أنت يا ماري؟

اختفت؛ ربما لغلظة أبداها علي الأشول تجاهها، على الرغم من أنه عادة إنساني جدًّا. انشقت الأرض وبلعتها.

– نعم؟

قالت الجرسونة وهي تقترب.

قلت:

– لا شيء.

قالت:

– كنتَ تحدّثني سيدي؟

قلت:

– لا. كنتُ أحدّث نفسي.

قالت:

– آه! شكرًا سيدي.

مرعوبة من أن تكون قد خالفت أمرًا. أقصد لم تلبِّي نداء. يا له من رعب.

(ف)

بعد أن أخذت نصيبي من جلسة المقهى، قلت لأتمشَّ في الأسواق القديمة. أظن أن يوم الخميس هو يوم استيلاء الآسيويين على المنطقة، هنود وباكستانيون وأفغان: يتجمعون في مجموعات صغيرة متزاحمة، خمسة أو ستة أشخاص. رجال ونساء ناحلون. يميل لونهم إلى الأسمر المسود. في الحدائق، في الممرات بين المباني، في المقاهي، في الميادين، يلتقون، يبيعون ويشترون، يتبادلون الأخبار، يتواعدون للقاءات سرية –هكذا قالت إحدى الصحف– يرون بعضهم البعض، كتلة واحدة، ربما، يتذكرون أسواقهم الشعبية، تفوح منهم رائحة عرق الشقاء المخلوط بالعطر الصناعي الرخيص، وآثار المطابخ ورائحة البنزين.

تمشيت قليلًا، وعدت في اتجاه «سوق المثنى»، دخلت مكتبة

«المكتبات الكويتية» واشتريت «الأهرام» و«الأخبار» –وأنا أحدث نفسي بالخطأ الذي ارتكبته، فليس هناك فرق بين الصحيفتين– وقلت: ربما يكون هنا شيء ليس موجودًا هناك. ودخلت محل «التوباكو» واشتريت تبغًا ماركة «أنفورا «، إنني أفضله في البايب، بالأحرى لا أشعر بالألم منه، أقصد أن ألمه على صدري أخف قليلًا من أي تبغ آخر جربته.

انسحبت عائدًا إلى الطريق، قلت لأمشِ في اتجاه الطريق السريع الرابع، لكنني عدت أدراجي في اتجاه السينما –ربما هو حنين لإدمان قديم، يوم كنت شابًّا أعود سينما الشرق الشعبية في السيدة زينب، أشاهد ثلاثة أفلام بقرشين–، لكنني نسيت أن أحضر السميط والجبنة الرومي، الفشار والترمس، لا، ليس هنا ترمس على أي حال، لم أره أبدًا، لكنني رأيت الحلبة المزرّعة.

كان الزحام أمام السينما على أشده، ومع ذلك استطعت أن أجد لنفسي مكانًا، فيلم هندي قديم، أظن أنني رأيته عدة مرات من شريط فيديو، البركة في ثروت فخري.

في الضوء الخفيف، والراقصات الهنديات يتمايلن، قلت للشخص الذي جلس بجواري، ولا أعرف لماذا، بالإنجليزية «المضعضعة»:

– هؤلاء الهنود، أليس لديهم شيء سوى الرقص والغناء طوال الوقت؟

تجهم وجه الرجل، بدا للحظة أنه هندي على الرغم من أن مظهره لا يوحي بذلك، قد يكون مصريًّا أيضًا، القميص والبنطلون، هذا اللباس العالمي! لكن ردة فعله جعلتني أتأكد من أنه هندي، من حقه أن يتعصب لثقافته، فكلنا متعصبون، إنْ على خطأ أو صواب، العالم كله في عصبية مجنونة ، وهو ابن الأمة الضخمة والتراث العظيم أليس من حقه أن يتعصب؟

نظرت ناحيته وفي نيتي أن أقول له إنني أحب اليوجا، وأمارسها أحيانًا، حين تصل بي الأمور إلى حد لا يطاق، لكنه كان لم يزل متجهمًا، لم يستجب، قلت لأعتذر، لكنني لم أفعل.

(ف)

ها أنت تمسك بنفسك مفعمًا بإحساسك بالذنب، ما الذي فعلته؟ لقد كنت تود أن تتجاذب أطراف الحديث، أو أن روحك المصرية الساخرة أرادت أن تعبر عن نفسها.

لكن أليس كل الناس قابلين لتلقي روح الدعابة؟ هذه ستكون، أقصد، كذلك، عقبة في سبيل التواصل، لكن لمَ أفكر أنا على هذا النحو؟

لم أفكر أن روح الدعابة حكر عليَّ؟

أحسست بالقرف، تركت المغنية الهندية ترقص وتهز رأسها

كثيرًا وخرجت، على الرغم من أن بطنها العاري كان مثيرًا للغاية، وعيناها جميلتان.

مشيت طويلًا وكثيرًا، وكان المساء قد بدأ يُرخي سدوله.

لا بد من تغيير المنظر.

أشرت إلى تاكسي، تأكد سائقه من أنه ليس هناك رجال شرطة، فتح الباب وأشار بسرعة، قفزت للداخل وقلت له أن يذهب إلى شارع البحر.

– شارع الخليج يعني؟

– آه.

– أنت مصري؟

– آه.

– لذلك أنا وقفت لك، أنت تعرف أن هذا ممنوع!

– أعرف.

عرفت من لهجته أنه سوري، لكنني لم أكن مهتمًّا؛ فقد كنت، لسبب ما، على عجلة من أمري لأصل إلى شارع الخليج، كنت أود أن أرى البحر.

– في كل بلاد الدنيا التاكسي...

قاطعته غصبًا عني:

– ما السر؟

– السر؟ لا شيء. ربما مصلحة لشخص ما، أو جهة ما، كأي

مكان في الدنيا هناك أشياء تُمنع لمصلحة شخص، وأخرى تُباح لمصلحة آخر.

– يا سلام.

– أي والله، ألا تصدقني؟

– وهل عندكم كذلك؟

– في الشام؟

– عندنا مثل عندكم وفي أي مكان آخر.

– وأنت إذن الولد الشجاع الذي يتحدث بذلك؟

– هنا في الكويت أستطيع أن أتحدث عن الشام كما أريد.

وضحك.

ضحكت أنا أيضًا، ورأيت المكان الذي أود النزول عنده، فطلبت منه الوقوف.

دفعت له دينارًا ونزلت؛ وشاهدت في عينيه كلامًا ربما كان يعني به أنه أنار لي الطريق لفهم بعض الأمور الغامضة.

لكنني بالفعل وجدت صعوبة في عبور الطريق؛ حتى من المكان المخصص لعبور المشاة، العربات تنطلق كالقذائف، لكنَّ شخصًا نبيلًا وقف وأشار لي بالعبور.

وصلت إلى الجانب الآخر.

كان الخليج هادئًا لكنني، وقد حل الظلام، لم أكن أراه بسهولة. قلت لمَ لا يضيئون البحر ليلًا حتى يراه الناس، لكن وكيف سيكون

عليه القمر إذ يظهر؟ وجلستُ.

كانت الحرارة تنبعث من الحجر، فلم أستطع الاستمرار في الجلوس، أخذت أمشي وأمشي وأنا أحس بالوحدة والاختناق حتى حافة البكاء.

قلت إنه ما كان يجب عليَّ المشي وحيدًا في مثل هذا الجو؛ لكنني لمحت سوق شرق يقترب، فأحسست براحةٍ.

كان السوق الذي بُني حديثًا يضم عددًا ضخمًا من المحلات التي تبيع أشهر وأغلى وأشيك الملابس والأحذية من الماركات العالمية الشهيرة، قد أصبح –من جهة أخرى– فرصة للأولاد والبنات للتواجد في مكان واحد؛ مكان فخيم مكيف الهواء تفوح منه روائح العولمة التي تُصيبك بالخدر وتوهمك بأنك في روما وباريس ولندن ونيويورك في نفس اللحظة؛ لكنك حين تتطلع جيدا تجد رجال الرقابة الذين يحدقون هنا وهناك تقدح أعينهم بالشرر تجاه الشاب الذي ينظر –يحدق– للفتاة بعينين جائعتين، تعرف أنك لست في روما ولا باريس أو لندن ولا في نيويورك؛ إنما أنت هنا في مكان ما على الخارطة العربية؛ حيث يمكن لنظرة أن تحدد مصيرك للأبد.

ركبت السلم الكهربائي –المتحرك– إلى الطابق الثاني من السوق. كنت قد بدأت أحس بالوحدة الصاعقة من جديد. جلست إلى طاولة من طاولات «كنتاكي» على الرغم من أنني لا أحب هذا الدجاج، فجاءت البنت الفليبينية وسألتني بإنجليزية مكسرة

فطلبت منها وجبة بالفلفل الحار –على الرغم من أن الطبيب منعني من الشطة بعد عملية البواسير–، وبإنجليزية مكسرة أيضا شكرتني على مجرد طلبي، فقلت: يا للأدب، ولمحتها تبتسم وترمقني من مكانها عند الكاونتر بإشارات ظاهرة، حتى إن شابًّا كويتيًّا، كان يجلس إلى الطاولة المجاورة، ابتسم، وراح يرقب الموقف بإمعان، وبينما كانت الفتاة تضع الوجبة أمامي راح الشاب الكويتي يهمس لي:

– أعطها الرقم. أعطها الرقم. الرقم.

هززت رأسي، فلم أكن أعرف عن أي رقم يتحدث، واقتربت منه:

– أي رقم؟

قال بحماس، بإخلاص الناصح:

– رقم تليفونك؟

قلت:

– آه.

وقف الشاب الكويتي ووضع النقود على المائدة، وقال باستنكار:

– أنت مصري؟! أنت مو مصري! المصري فهلوي! أنت مو مصري!

وبلهجة مصرية أضاف:

– المصري ياكلها وهيا والعة.

ولم أعرف بالضبط ما الذي يجعلني غير مصري، فلم أكن في الحقيقة أحب هذه الطريقة في اصطياد النساء، وإن كانت لي، كأي ذكر في هذا العالم، طريقتي الخاصة في الإيقاع بهن، وأظن أنه حتى ذئب البراري يعرف بعض الطرق، وإلا فلن يجد حلًّا للخلاص من كآباته.

أنهيتُ طعامي وأشرت للفتاة الفليبينية لأدفع الحساب، فوجدت أنها فعلًا، كما قال الشاب الكويتي مسخسخة، أقصد مسهمة، وراحت تُسبِّل عينيها وترخي يدها في يدي حتى خلت أنها ستنام، فقلت سبحان الله، وكيف عرف الشاب الكويتي أنها تريد، وأنه كان عليَّ أن أعطيها الرقم، ولكنني لم أفعل، بل اندسست بين الناس المتزاحمين في مركز سلطان التجاري حيث يمكنك أن تشتري ربطة البصل الأخضر بما يعادل خمسة عشر جنيها مصريًّا؛ لأنه قادم اليوم من مزرعته في آخر الدنيا في كاليفورنيا بالطائرة، وإن كان عنده أيضًا، غير البصل والتفاح الأمريكاني، ألعاب تايواني لا فائدة منها سوى أن تضعها في هذا الركن أو ذاك من شقتك التي لا بد أن تكون سوبر لوكس؛ لأنك ستدفع مال قارون في أي لعبة من هذه اللعب، وبما أننا كنا قد اقتربنا من الكريسماس، فإن أغلب اللعب كانت في شكل بابا نويل، ومصنوعة من البلاستك أيضًا، أي يمكنك أن ترميها في كيس الزبالة بعد المناسبة مباشرة، فوجدت في هذا ما يدفع إلى الابتسام، وإن لم يكن بالضرورة يدفع

للضحك بصوت عال (الذي هو قليل بطبعه هذه الأيام)، فقلت: «معلهش. هيا بنا»، وفعلًا «عملت هيا بنا»، ومشيت خارجًا من المركز وأنا أخشى أن يسألني أحد الواقفين من حراس اللصوص المتخفين في الدشاديش لمَ لم أشترِ شيئًا، أو ماذا اشتريت، أو أي سؤال يكشفون به، بخبرتهم في كشف اللصوص، ما إذا كنت قد أخفيت شيئًا تحت هدومي، لكنهم لم يفعلوا، وإنما رأيتهم ينظرون بتمعن ناحية جيوب سترتي –على الرغم من وجود جهاز كشف السرقة على الباب–، لكن انتهى الأمر على خير، وبعد أن انتهى على خير، أكملت جولتي في سوق شرق، وانتابتني تلك الأحاسيس التي تراود مدمني التسوق، فعرفت معنى هذا الشيء الذي يسمونه حمى الاستهلاك، ذلك المنظر الذي كنت استنكفه وأحس حين أراه بالقرف، وجدت نفسي فيه بالفعل، لقد أحسست فجأة بحرارة جسمي ترتفع، حتى إنني أحسست بقميصي يكاد يشتعل فوق جسدي، وشممت بالفعل رائحة دخان رأيته يتصاعد من تحت إبطي، فأحسست برعب، فقفلت خارجا إلى كورنيش الخليج، و قلت لأذهب إذنْ إلى مقهى «ليالي الحلمية» –المأخوذ اسمه من اسم المسلسل المصري الشهير–، وفعلًا مشيت إلى هناك ، وطلبت شيشة وشايًا بالحليب، وتذكرت صاحبي عادل السيوي كاتب الروايات الذي قال لي بأنه سيكتب يومًا رواية عني، أكون فيها شاربًا للشاي بالحليب طوال الوقت، كأحد ملامح شخصيتي.

ثم إن الوقت قد تأخر، ووجدتني في الطريق أشير إلى السيارات، حتى وقف لي شخص باكستاني ممن يدورون في الشوارع يلتقطون الناس لتوصيلهم بربع دينار، وقد أمكن لي التفاهم معه بهذه اللغة المخلوطة –خلطبيطة– بين الكويتي والباكستاني والإنجليزي، لكنها أصبحت اللغة المتداولة هنا، حتى إنني أصبحت أجيدها كالبربند، وبالفعل تحدثنا وتحاكينا طويلًا عن أشياء كثيرة خاصة مأساة الغربة، وكذلك عن أهلنا في البلاد، لكنني اختلقت قصة لحياتي جاءت من وحي الخاطر، فقلت إنني في الحقيقة ضابط بوليس سري، وإنني قادم إلى هنا في مهمة سرية، فقال إنني ربما أتابع الإرهابيين الذين يقتلون السياح الأوربيين عند الأهرامات في مصر وتسميهم الحكومة بالأفغان كما قرأ في الصحف، فابتسمت له بما يعني أنني فعلًا جئت لشيء كهذا، وإن لم يكن هو بالضبط، فقال إنهم فعلًا يأتون إلى هنا، وإنه رأي بأم رأس عينه (كذا) عددا منهم، لكنه سرعان ما يجدهم يختفون؛ لأن الحكومة هنا أيضا لا تريدهم، وأنه هو نفسه كم تمني أن يكون مثلي من هؤلاء الرجال ذوي المهمات السرية، فقلت إنه يبدو أن هذا من طبيعة البشر، ففغر فمه مستفسرًا، لكنني هززت رأسي وطلبت منه إيقاف السيارة، وبما أنني كنت قد تحدثت معه عن هذه المهمة السرية فقد نزلت بعيدًا عن بيتي حتى لا يعرف أين أسكن؛ لأنني أظن أنه هكذا يفعل الرجال السريون، أقصد الذين يعملون في هذا

العمل، لذلك فإنني حين جئت لزاوية الشارع تلفت خلفي فلم أجده فاطمأننت، ودرتُ حتى دخلت مسكني ولمحت في مرآة الصالة من يسألني: أين كنت؟ هل كان يوم عطلة طيبًا؟ والآن قل لي ماذا ستفعل؟

(ف)

العودة إلى البيت؟

دائما تكون العودة إلى البيت مصحوبة بنهاية اليوم، ما الذي يعنيه هذا يا ضُحى؟ ولسنا حتى يا بنيتي موضوعًا لرواية، رواية ضخمة، رواية يرويها راوٍ يرى رؤى، رؤى ضخمة كما الأنبياء بالكوارث.

لكنني على أي حال غيرّت الجو.

وانفردت بنفسي.

هذا هو السرير.

والضوء الخفيف (من الأباجورة القش).

أطفئ الضوء. أقضي عليه.

لا. أنتظر.

ووجدتني أخرج الصندوق، أقصد الكشكول الصغير الذي كانت ضحى قد أهدتني، وقلت إن من الأفضل أن أواصل كتابة الرسائل

التي عليَّ أن أكتبها حتى أتمكن من إرسالها في الصباح.

وسحبت البطانية على جسدي المتعب، وأمسكت بمجلة العربي لأقرأ قليلًا حتى يبلغني النعاس. كان هناك موضوع مصور عن نيبال: عن جبالها وفضائها الروحي، خاصة في منطقة ثاميل، هناك حيث يمكنك أن تجد أهل التانترية الذين يخلطون طقوس الروح بشهوات الجسد على درب الخلاص.

قلت قد يكون هذا حلًّا.

مَن يعرف.. ربما أنهيت بقية حياتي هناك.

(ف)

صباح الجمعة:

كان الضوء هو الذي أيقظني –نسيت الستائر غير مسدلة– في نفس موعد استيقاظي أيام العمل. أفكر في تجنب حضور الشلة للإفطار الأسبوعي الذي هو اليوم من نصيبي، أقصد أنهم سرعان ما سيحضرون واحدًا وراء الآخر عندي، ويكون عليَّ قبلها إحضار الفول والفلافل والبيض والخضرة –التي يصر عليها علي الأشول أكثر من أي شخص آخر– الكراث بالذات له أهمية خاصة عنده، ربما تجاوز عن الفجل والجرجير والبصل الأخضر، لكنه لن يتنازل أبدًا عن الكرَّاث. كنت أتمنى الجلوس مع نفسي والتفكير في..

أيامي المقبلة، كيف سيكون حالي مع مرور الزمن، هذه المسألة التي يسمونها المستقبل، فالأيام تمضي وأنا لم أحدد بعد مصير الزواج والأولاد. تلك الأشياء التي يصر الجميع على أهميتها. أنا أحتاج فعلًا إلى امرأة بجواري، لكنني في نفس الوقت أحب، أقصد لا أطيق أن أحس بأنني أعيش في خريطة تحدد عالمي، أحب أن أكون وحدي.

ثم مسألة العمل هذه. كيف سأستمر في هذه الوكالة ومهمتي المملة: عمل الملفات وصياغة رسائل إلى كل ابن حرام له صلة بالعمل –ثم إن جهدي يتضاعف نتيجة أنني لم أتعود الكتابة مباشرة على الكمبيوتر، ويكون عليّ صياغة الرسائل أولًا بخط يدي ثم كتابتها على الجهاز، ثم إعادة تصحيحها وعرضها على أبي محمود صاحب الوكالة، ثم إرسالها إلى المقاولين وأصحاب الأعمال الأخرى، طبعًا نحن لا ننتج شيئًا بالمرة، وإنما يقتصر عملنا على استيراد العمالة من الخارج –الفنيين من الرجال من مصر والهند وباكستان، والسكرتيرات من لبنان–، ثم أعمال السمسرة والحملات الإعلانية التي يديرها الأردني من أصل فلسطيني أبو نضال، وأغلبها حملات –بعضها وهمي وبعضها حقيقي– للمرشحين في انتخابات مجلس الأمة، وهي التي تدر أغلب المال للوكالة، يليها استيراد السكرتيرات الفاتنات.

ما أقلقني في الأمر هو ما قرأته في إحدى الصحف، بقلم طبيب

مصري، عن أمراض المهنة، وأكد فيه أن الأعمال الكتابية تصاحبها أمراض عديدة على رأسها أمراض القلب والضغط والعمود الفقري، لكن المقلق في الأمر هو ما أكده الطبيب، نقلًا عن دراسة أمريكية تؤكد أن ٧٠ ٪ من الذين يمارسون أعمالًا كتابيةً ينتهي بهم الأمر للإصابة بالسرطان، وقال إنه يرجح أن ذلك لا يعود للعمل نفسه ولكن ما يصاحبه من تدخين، وإذا كان في هذا العالم كله ابن عاهرة يدخن السجائر أو الشيشة أو البايب أو حتى السيجار بكميات كبيرة، فإن ابن العاهرة الذي هو أنا أدخن كل هذه الأنواع، لا بشكل كبير، بل طوال الوقت، حتى إنني أستيقظ من النوم لأدخن وأعود للنوم، وأعترف بأنني نجحت في التخلص من عادات كثيرة إلا هذه العادة التي أمارسها مذ كنت في التاسعة، تصور!

آه. بدأ جرس الباب في العمل. جاء الأوغاد، وبعد لحظات ستبدأ ملحمة مضغ الفول بكل أنواعه مع «عليقة» الخضار: قطيع أرانب يقرض العشب حتى لا يُبقي في الحقول نبتة.

– أيوه. جاي.

أهم ما انتهت إليه وليمة الإفطار يا ضحى خبرية قال بها علي الأشول، هناك معلومات سرية وردت للبلد، ووزعت في الخفاء على بعض المتنفذين، بإمكانية أن يشن صدام حسين هجومًا جديدًا سيكون هذه المرة بالمواد الكيماوية انتقامًا من الأمريكان، سيشنه على الكويت طبعًا، لذلك راح هؤلاء يستعدون للخروج –ليس

المصريون إذنْ وحدهم هم من كتبت عليهم الهجرة بل البقاء حتى في ظل مثل هذا التهديد، أين يذهبون؟ وهناك منهم الكثير في كل مكان– ملأوا خزانات الوقود بالبنزين استعدادًا للرحيل في أي لحظة، لكنَّ أستاذًا جامعيًّا قام بمظاهرة فردية في شارع الصحافة بالشويخ وقال بأن هذه إشاعة من الأمريكان لابتزاز الكويتيين وأخذ ما تبقى لهم من دنانير، وسأل أي علي الأشول: ماذا نحن فاعلون؟ فأجابه محمد الجزار: قل لي ماذا نفعل؟

وقام علي سليمان بمشهد مسرحي أداه واقفًا على الكنبة: العدو أمامكم والبحر خلفكم، فلا مناص من الموت أو الغرق.

كان قد عاودني الصداع، فدخلت غرفتي وتمددت على الفراش، ففهموا أنني لم أعد أحتمل الصخب. تركوني واحدًا وراء الآخر ورحلوا. لكنني لم أستطع النوم، أخذت أتقلب في فراشي، ثم..

(ف)

لم تمر بقية يوم الجمعة على خير.

أتذكرك الآن يا ولاء، وأنتِ تتحدثين عن صراخ أمكِ الذي لا ينقطع.

بدأ الخبط و«الرزع» والولولة فجأةً في شقة الجيران لصاحبها أبي سوزي. يبدو أنهم عادوا من إجازتهم التي أراحوني خلالها

لمدة شهرين. لديه ثلاث بنات بلا ولد، وسوزي هذه أكبرهن، ربما هي في الخامسة عشرة أو نحوها، لكنها تبدو أكبر من سنها –لن أصف لك قوامها وما فعله خراط الصبايا ومن هذا القبيل، حتى لا تحسي بالغيرة، وربما تظنين بي الظنون، خاصة وأنكِ تشكّين، منذ رأينا معًا فيلم لوليتا في شقتي، بأنني أعشق البنات الصغيرات–، لكن باختصار هي جميلة بشكل قاتل –البعض يشبهها بهند رستم، التي تحبينها يا ولاء ودائمًا تتحدثين عنها كنموذج كنتِ تودين أن تكوني عليه، مع أنني أراكِ بسماركِ أكثر إثارة بالنسبة لي، هند رستم في صغرها، تصوري، في الخامسة عشرة– لذا، فهناك معارك كثيرة تقع، لا فقط بجوار البناية، أو على السلالم ساعة عودتها من المدرسة، ولكن في منطقة حولي كلها، بل إنني شهدت مرة معركة ساخنة بالمطاوي والجنازير في السالمية بجوار سوق شرق بين مجموعة من الشبان انقسموا إلى فريقين بسببها، فريق راجل والآخر من راكبي السيكلات/ الموتوسكلات، حليقي الذقون، يسمون أنفسهم:كوكيز –كما قرأت في الصحف التي كتبت عن الموضوع في الصباح التالي لوقوع المعركة– بينما كانت أمها –أثناء المعركة– تحتضنها وأبوها يرفع ذراعيه فاغرًا فمه في حالة يسميها محمود الجزار بلهمية–، فقد اعترض الكوكيز البنت الناعمة إلى حد قاتل، لكن الراجلين لم يعجبهم الأمر، فقامت المعركة على شرفها.

سوزي –من ناحيتها– تحب جارها الولد السوري عمار أبا أعين خضر، والذي تصفه أمها «بأن دمه ثقيل»، وأبوها يعتقد أنه قبضاي –طبعًا لصرفها عنه– مما يزيدها تمسكًا به، والبنت تقطّع شعرها وتصرخ، ويقال إنها حاولت الانتحار بالحبوب المنومة مرتين.

لكن..

أجد يا ضُحى مشكلة كبيرة هنا لم أظن وجودها من قبل، فعمري لم أكن أتصور أن يصل التعصب بين الجنسيات العربية إلى هذا الحد. تصوري تقدم طبيب مصري للزواج من فلسطينية –كانا على علاقة غرام لثلاث سنوات، وصلت إلى حد أنها كانت تذهب إليه فى شقته كل صباح، توقظه بوردة حمراء تداعب بها خده، وقبلة ساخنة في شفتيه، وتجهز له الإفطار، تغسل له ملابسه وتطبخ له قبل أن تذهب للعمل– لكن أهلها رفضوا زواجها منه لأنه مصري، وزوجوها من سباك مجاري لأنه فلسطيني، والمشكلة ليست أنه سباك أو غير ذلك، لكن المشكلة أنها لم تكن تحب هذا السباك بل تحب الطبيب، وقد حدث نفس الشيء تقريبًا بين مصرية وأردني.. نفس الشيء.. نفس الشيء.

المهم أن شكلي لا يسر. أنا في حاجة للذهاب إلى زكريا الحلاق، علّه يصلح بعض الشيء من حالتي المزرية، ثم سيكون عليَّ أن أغطس في البانيو وأبقى في ماء دافئ حتى يبلغني النعاس، فغدًا يوم جديد من العمل الممل.

(ف)

كان المحل هادئًا إلا من موسيقى خفيفة لعبد الوهاب، فزكريا النحيل رجل صاحب مزاج رائق، يحب الوحدة، لذا فهو يبقى في دكانه حتى ولو لم يكن لديه زبائن –بالمناسبة هو من المصريين المعمرين في الكويت، جاء عام ٧٣ ولم يذهب إلى مصر إلا في إجازات تبعد الواحدة عن الأخرى سنتين أو ثلاثًا– يعيش وحده تاركًا خلفه في الفيوم زوجة وولدا وأربع بنات أغلبهن في بيوت أزواجهن، لم ألاحظ أنه قبطي إلا حين نشرت إحدى المجلات تحقيقًا عن المسيحيين في الكويت، وساعتها قال:

– هل تعرف أن أغلبية المسيحيين في الكويت هم أقباط؟

قلت:

– أنا أعرف أن كلمة أقباط تعني مصريين؟

قال:

– لا. أقصد أنهم تابعون للكنيسة القبطية المصرية.

قلت:

– هذه معلومة جديدة لم أكن أعرفها.

قال:

– هناك الكثير من الأشياء التي لا نعرفها نحن المصريون عن

العرب الآخرين.

عند هذا الحد لم أستطع الجدال.

* * *

قلت وأنا أجلس على المقعد العالي:

– كيف حالك يا زكريا؟

قال:

– لا يسر.

– لماذا؟

قال:

– بدأت أتعب، أنا الآن رجل كبير، سأبلغ السبعين بعد أيام.

قلت:

– آه. وماذا ستفعل؟

قال:

– فكرت في العودة، لكنني متردد، ماذا أفعل هناك ولم يعد لي محل أو...

قلت:

– أليس لديك مدخرات تبدأ بها مشروعك؟

قال:

– مدخرات؟ هأ. زواج البنات أكل كل شيء، وأمثالي مدخراتهم لا تذكر، أمامي إيجار المحل، وتجديد الإقامة، ومصاريف الأولاد

في مصر.

ثم صمت:

– الناس هناك في مصر لا يصدقون هذا الكلام، يعتقدون أن الأرض تضخ على المقيمين في الكويت أنهارًا من الدنانير.

قلت:

– أعرف!

قال:

– هذه أحلام. أحلام حلمناها حين بعنا كل شيء وأتينا.. أحلام عصافير!

– لكن الناس هناك لا يصدقون.

قال:

– أعرف. هل تريد «فتلة»؟

قلت:

– آه. لكن على مهلك.

بعد أن نظفني من الشَّعر الزائد بالفتلة، وجدت أن هيئتي فعلًا أصبحت أفضل.

كان ضوء المساء الخفيف يوحي بليلة طيبة، الحر لا يزال في أوله، وبإمكاني أن أنام في هدوء.

هأ.

(ف)

فاجأني سلطان أبو حمزة بالدق على شباكي في نفس موعده المبكر، على الرغم من أنه كان قد قال لي مساء الأمس لن أحضر طبعًا في الغد، فهو الذي كان يذكّرني بأيام العطلات –أنا المصاب بغيبوبة الوقت المزمنة–، وكنت لم أزل نائمًا على وعد الليلة السابقة، ولم أفتح إلا بعد أن راح يصرخ:

– أنا سلطان.. أنا سلطان.

فتحت الباب فاندفع للداخل معاتبًا على تأخري، وهو يعيد عويناته الثقيلة بإصبعه الوسطي للوراء –كان يفعل هذا أحيانًا دون حاجة، غالبًا بفعل العادة، أو ربما هي حركة عصبية يؤديها لإثبات الذات، أو ربما ليذكّر نفسه بأنه لا يزال يرتدي عويناته، أو ربما خوفًا من ألّا يرى– دخل إلى المطبخ، وقال إنه سيصنع قهوةً عربيةً، وسألني ما إذا كنت سأشاركه، فوافقت، من هناك، من مكانه في المطبخ –أعترف بأن مطبخي مرتبك، غير مرتب، تتراكم فيه الأشياء، الأطباق والأكواب والآنية، فوق بعضها–، قال:

– هل تعرف ماذا جرى؟

– ماذا؟

– أنا وجدت الخيط الذي سيهديني.

قلت:

– فعلًا؟

قال:

– آه.

عاد بالقهوة العربية التي يحب أن يغليها في الدلة النحاس –وكان هو الذي قدمها لي كهدية مع ثلاثة فناجين «بيشة»، فهو يرفض أن يشرب القهوة التركي، ويقول إنها تذكره بالاستعمار العثماني– ويصر على القهوة العربية، بهذه الطريقة، ومن الدلة، ومن هذه الفناجين، لذا فهو يترك دلة وفناجين في كل شقق أصحابه التي يرتادها.

– رجل بدوي كبير التقيته ليلة أمس حين ذهبت للبر مع مبارك العدواني، رجل كبير وأصيل وقال إننا ربما نكون أقارب.

– صحيح؟

– حدثته ونحن في الخيمة نحتسي القهوة العربية ونمضغ التمر عن شجرة عائلتي –التي للأسف لم أكن أحملها معي، على الرغم، كما تعرف، أنني أحملها معي دومًا في المشاوير المهمة، لكنني كنت خارجًا في رحلة سمر، المهم، قلت له إن نسبي ينتهي إلى القائد العربي شريك بن سمي القطيفي الذي جاء مع عمرو بن العاص ساعة فتحه مصر واختطه حيًّا من أحياء الفسطاط.

ونظر ناحيتي وهو يمد يده بفنجان ثان من القهوة بالهيل –لأنني لم أكن قد هززت الفنجان علامة الاكتفاء حسب التقاليد العربية التي تعني أنك حين لا تهز الفنجان أنك تريد فنجانا آخر.

قال:

– هل تعرف ماذا جرى؟

قلت:

– لا.

قال:

– انتفض الشيب واقفًا واتجه إليَّ، قال: نحن أولاد عم، أولاد عم، يا خووي.

قلت:

– كيف؟

قال:

– نحن من نفس الجبيلة.

قال، قال الرجل الكبير إن جده هو خالد بن عدي الجهني، والجهني هو شقيق القطيفي، لكن الجهني هو الذي بقي في الجزيرة العربية، وشقيقه القطيفي هو الذي رحل على رأس نصف الجبيلة إلى مصر، وبقي الجهني على رأس النصف الثاني في الجزيرة، وكان أن..

نحن إذن من جد واحد،

وكان يسكن القطيف، ومن القطيف نحن جئنا إلى هنا،

أولموا لابن العم،

واشتعلت النيران أمام المخيم،

وسمعت صوت الأوزي وهو يذبح، ورأيت الدم السائل والجلد الملقى على الرمال حين خرجت من الخيمة،

وراح سلطان يهذي، لكنني كنت قد نمت تقريبًا، فلم أسمع بقية ما قال.

(ف)

آخر الليل:

قمت فزعًا من الكابوس، كان حلمًا هادئًا في البداية.

بدأ وأنا لا زلت أتجول في شقتي هناك في القاهرة، بعد أن جهّزت كل أوراقي للرحيل، تجولت بين الغرف التي بدا عليها وكأنها ستظل فارغة طوال زمن لا أعرف مداه، والعفش: الكنبتان الواطئتان في غرفة الجلوس، والمقاعد القصيرة المنجدة بالكريتون المقصب الذي حال لونه إلى الترابي، والوسائد الملونة التي تآكلت حوافها من كثرة استعمال البشر، وطاولة الطعام في الصالة، والسرير النحاسي الذي ورثته عن جدتي، كل ذلك كان الغبار قد علاه، على الرغم من أنني لم أكن، في الواقع، وحتى هذه اللحظة، قد

غادرته بعد، إلا أن رائحة السفر التي كانت هناك، فوق كل شيء، قد جعلتني أحس بانتفاضة الخوف من المجهول الذي ينتظرني –وهو ما أنا فيه الآن– هذا الخوف الذي بدأ يتزايد وأنا أهبط درجات سلم البيت العتيق محاولًا تجنب اصطدام جانب حقيبتي برأس الطفل الخضراء –لا بد أنه كان يرتدي قبعة– الذي كان هو أيضًا نازلًا وهو يحمل حقيبته المدرسية تتقدمه أمه التي كانت تحمل رضيعًا على ذراعها، وحقيبة غيارات على كتفها، وما يبدو أنه بوستيج معلق في شعرها من الخلف، وتجاعيد الإرهاق على وجهها، لقد كانت تحمل ذلك كله، لكنها لم تكن، مثلي، خائفة، وبدا أنني أتخطى بصعوبة فائقة الكتل البشرية التي تزاحمت، من هذه اللحظة، في الحلم، وعند المدخل أيضًا، ولم أعرف أن عربة تقلني إلا أنني في النهاية وجدت نفسي في أتوبيس مزدحم تتدافع فيه الأجسام وتتساقط الحقائب على الرؤوس المشرئبة، نعم المشرئبة، المشرئبة فعلًا، ولم يوفر المنظر أن يكون بين الزحام باعة بيبسي –صناعة محلية له طعم العرقسوس المعطن– وأصوات أخرى، أصوات من كل نوع وحجم وطبقة ومستوى، حتى بدا ذلك أقسى من أن أحتمل، وكنت لا أزال هائمًا في بحار الليالي أنتظر المواعيد، لكن الناس كانوا جالسين على مقاعد حجرية على شاطئ النيل، كانوا صامتين، لا يتكلمون، كنت أنا –والحلم لا يزال– من يتحدث عنهم في المحكمة التي كان يجلس على منصتها الممثل

عادل إمام –وهو في السبعين من عمره مكشر السحنة– وبجواره من ناحية اليمين إسماعيل يسن فاغرًا فمه، ومحمد أنور السادات من ناحية اليسار يهز رأسه وينفث دخان البايب، ثم آكشن: الرصاصة تصرع السادات فيتصاعد دخان أبيض، ولكنني لا أزال أرتدي روب المحامي وأنا ألوح في الهواء يائسًا بكلمات لا تخرج وتحتبس في حلقي، أتهجى بصعوبة اللغة المطلية بالغربة، المدفونة لمدة نصف قرن في جرة مليئة بالملح، المشوية على نار الحطب تحت تعريشة البوص، الكلام واللهجة، السمت والنبر، الأصوات كانت بلا عدد، بصعوبة ميزت بعضها، سأكتب إليكِ يا ضُحَى، آه، تلك الأصوات، بصعوبة ميزت صوتكِ، من بين تلك الأصوات.

ظهر اليوم التالي:

في العادة كنت أتناول غدائي مع الزملاء في المكتب؛ نتصل بأحد المطاعم الشعبية ونطلب بريوني دجاج مدفونًا في أرز أو بريوني سمك، أو بيض غنم، لكنني قررت الذهاب إلى مطعم، آكل هناك لوحدي، معجنات، سمبوسة وفطائر، وأتفرج على وجوه الناس.

من الأفضل طبعًا أن أذهب إلى مطعم يعرفني صاحبه –أصبحت بالفعل معروفًا لعدد من أصحاب المطاعم الصغيرة المتناثرة بين المطاعم الشعبية والمقاهي، وبطريقة ما كان أغلبهم من الفرس، أقصد الإيرانيين، صحيح أنني لم أكن قد تحدثت طويلًا لأي منهم

لأنهم لم يكونوا حتى يتحدثون العربية –احتجت مرة إلى مَن يترجم لي كلام علي داو طلب صاحب مطعم الكباب الإيراني –الذي هو الكفتة–، فتقدم لي باكستاني يتحدث الأوردو وقليلًا من الإنجليزية وبعض الفارسية، ووصف نفسه بأنه مترجم معتمد، وأخذ ينتع بكلمة من هنا وكلمة من هناك، وأخيرًا هز رأسه ليقنعنا، أنا وعلي، بأنه نجح في إفهامنا الموضوع، ولكنني تضايقت لشيء واحد هو أنه اعتقد أنني أريد أن أفهم الموضوع، ولم يدرك أنني أمر بتجربة تسلية طريفة، وهذا كل ما في الأمر.

وأحسست، وأنا آكل الكباب الإيراني، بخبط كلمات في رأسي.

أنت مزنوق.

تعيش خلف قناعك.

أنت لا تستطيع أن تقول هو.

لا تستطيع أن تبتعد مسافة عن نفسك.

بعيدًا عن قناعك.

ما الذي جعلك تلبس اسمًا آخر؟

لمَ لا تستطيع أن تعلن عن نفسك؟

عن عملك؟

* * *

بعد الظهر:

– الرواتب نزلت.

هكذا قال سلمان رشدي بعربيته المكسرة، وهو يستقبلني على السلم، وأنا عائد من وجبة الكباب/ الكفتة التي لا زالت في حلقومي. الحموضة على الفور، ولا يمكنني فعل شيء تجاه هذه الحموضة التي تعتصرني، على الفور، بمجرد وصول هذه اللحظة من أول كل شهر.

سيكون عليَّ أن أمشي إلى مبنى البنك المجاور، يا ولاء، وسيكون عليَّ أن أسحب جزءًا من الراتب بالكارت من البنك الآلي وأعود كسيحًا. سيكون عليَّ أن أدفع لسلمان رشدي ما بين ٢٠ إلى ٣٥ دينار قيمة طلبات القهوة من البوفيه! تصوري، وهو لا بوفيه ولا يحزنون، مجرد عدة شاي وقهوة قديمة اشتراها من سوق الحراج (الذي يُقام كل يوم جمعة) حيث أكوام المعدات القديمة (حقائب– أسرة– موكيت– ستائر– أحذية– بوتاجازات– ثلاجات– مخدات– مراتب– مكاتب– ماكينات حلاقة– مكانس– أجهزة تكييف– أواني مطبخ– بخور– أركان إسفنجية ديوانيات للجلوس– طاولات سفرة– دلايات– مباخر– أكواب– ملاعق– صناديق خشبية، وكل ما يلزم بربع الثمن أو أقل، وأنت وشطارتك مع البائع الهندي أو البائع البدوي الذي يبيع مشغولات السدو من المساند والأكلمة والمعلقات التي يقبل عليها الأجانب خاصة الأمريكان والإنجليز).

أظن أنكِ يا ولاء ستحبين الذهاب إلى هذا السوق لتمارسي هوايتكِ في الفصال، لكنني أشك في أنكِ ستصلين إلى حل، بل ستعودين وأنتِ في غاية الغضب.

تصوري ماذا وجدت هناك في زيارتي الأخيرة حين ذهبت لشراء أنبوبة بوتاجاز إضافية؟ وجدت إطارًا مذهبًا، داخله، خلف الزجاج، ورقة قديمة كتب عليها كلام اشتريته بربع دينار:

بعد الكابوس

إذنْ فلأكن قويًّا،
ومدججًا بالسلاح.
أحمي هامتي من
بعيد.
حتى أتجنب مخالب
الحيوان المفترس.
.
يا قطتي الصغيرة المتوحشة،
ما الذي رماكِ في طريقي؟
لمَ لم تغضي الطرف عني،
وتمضي في حال سبيلكِ؟

ها أنتِ تقعين فريسة العدة،
والعداد.
فكلنا يتوقع الذئب أو اللبؤة أو الضبع..
قابعًا في الطريق،
أو على غصن شجرة.
فنحن في غابة مظلمة.

إنني أحتفظ لكِ بهذا الكلام في إطاره الذهبي؛ لأهديه لكِ بمجرد عودتي.

(ف)

إنها السادسة بالضبط –مساءً طبعًا– إنني أطل من نافذتي على الميدان المترب، وفي يدي كوب الشاي ولا يزال النوم في صدري، أقصد في نفسي، (لابد أن ضحى ستسألني هل عندكم تراب في الكويت؟)، ورأيت امرأة تلبس الثوب الكويتي الشبيه بالثوب العراقي، الشبيه بالثوب الإيراني، تقف بجوار سيارة وهي ترفع أعلى الثوب على رأسها، يبدو وجهها أبيض اللون، وجه عراقي الأصل. لا. أظن أنها إيرانية من شيراز، لكنها الآن كويتية الجنسية، تبدو عليها الحيرة، آه، لقد تبينت الأمر، إنها

صاحبة البناية المجاورة، فهذا هو الحارس البوّاب، يسلمها رزمة الدنانير، إنها تصرخ في وجهه عن المتأخرات، طبعًا ليس كل الكلام واضحًا بالنسبة لي، لكن الغضب واضح، الشتيمة واضحة جدًّا، وكانت هناك فتاة تنتظرها في السيارة اللاند كروز البيضاء، لم أتبين حقيقة ملامحها، لكنها كانت تطل من النافذة ثم تعود وتختبئ.

آه. تذكرت: غدًا الجمعة سنطلع إلى البر، عزمنا أبو محمود أنا وزملاء العمل، على طلعة إلى البر، إلى مخيم في الصحراء –نحن لا زلنا في الربيع حيث بالإمكان احتمال الطقس– وحيث لا تزال الصحراء مغطاة بخضرة باهتة تتناثر الزهور الصفراء فوقها كأن السماء رشتها بنفحات من مسحوق الكركم.

(ف)

استيقظت على رنين التليفون، كانت رانيا سكرتيرة أبي محمود هي التي أيقظتني، وكانت الساعة الخامسة والنصف، قالت:

– شو خيو؟ بعدك نايم؟ قوم اولوه؟ بدك تكون ع الباب الساعة ستي! بخاطرك!

كأنه الوعد أو الوعيد، الساعة الخامسة وخمس دقائق، رطوبة الصالة خانقة، لا بد أن أجد طريقة لإحكام الباب، فهذه الرطوبة

اللعينة تتسرب حتى من تحته. لست في حاجة لأكثر من حلاقة ذقني، وكوب ساخن من الحلبة باللبن، لكن صوت كلاكس الفان جعلني أغلق البوتاجاز قبل أن تغلي الحلبة. أحكمت من شد الحزام في وسطي، أمسكت بحقيبة يدي الصغيرة وتأكدت من أن بها بطاقتي المدنية، وحافظة نقودي، بضعة مناديل ورقية، ومفاتيحي، وأغلقت الباب.

كانت رانيا جالسة في المقعد المجاور لباب الفان تشير بيدها وتبتسم، كانت تعرف أن الكسالى من أمثالي يحتاجون إلى قليل من التشجيع للاستيقاظ قبل موعدهم، وكانت هناك وجوه لا أعرف على وجه التأكيد أصحابها، وقد فاجأني عدد النسوة في الفان، كنت أظن أن الطلوع للبر سيقتصر على الرجال، ها هي فاطمة الهندية المسلمة، السكرتيرة الأخرى، أم شعر طويل طويل، وبستان الباكستانية، تجلسان جنبًا إلى جنب، وسلوى المصرية التي تعرّف نفسها بأنها مسؤولة العلاقات العامة في الوكالة، الحرباء التي تتولى الإيقاع بزبائن حملات الإعلان، مَن يقع بين يديها يا ضُحى لن يفلت منها ولا بالصابونة، هي بلا صوت تقريبًا، ليس لها صوت مرتفع كعادة البنت المصرية المعجبة بصوتها، وصوت أم كلثوم، أستطيع أن أستعير تشبيهكِ الذي لا أنساه وأنتِ تصفين أختكِ الصغيرة وهي تتكلم: إنها توشوش نفسها، هكذا هي سلوى، توشوش نفسها، لكن لا أحد يقع في شباكها ويفلت. حذار!

والفان في شارع الجهراء ينهب الطريق المؤدي إلى البر، أحسست بنوع من الأخوة، لا بد أن الدنانير هي التي تجعلنا نحس بالدفء، هذه حقيقة، ما الذي يجعل الغرباء يحسون بالألفة سوى غطاء من البنكنوت؟

كان أبو محمود ينتظرنا أمام باب الخيمة في صحبته شاب يحمل عودًا في يده، وكان صف من سيارات المرسيدس والشيفورليه يمتد حتى ما وراء الخيمة الكبيرة.

بدا أبو محمود أكثر مرحًا مما كنا نراه عليه في الوكالة، بعد أن جلسنا على المساند أرضًا، طلب منا أن نستمع لأحمد وهو يعجب من أنه كيف لهذا الشاب السوري الذي يعمل مزين نساء أن يتقن العزف والغناء على هذا النحو، تنحنح أحمد وأمسك بالعود وراح يغني:

«غريب الدار
عليّا جار
زمان القاسي
وظلمني
مشيت سواح
مسا وصباح
أودع
اللي راح مني».

ما إن كف أحمد عن الغناء، حتى كان الوجوم يخيّم على الجميع، بدا أبو محمود متفاعلًا مع غربتنا، الأمر الذي بدا بالنسبة لي غريبًا، لكن مَن يعرف، ربما عانى هو نفسه من الغربة، ربما أيام غزوة صدام حسين شرد في مكان ما من العالم، طبعًا، مَن يعرف.

* * *

لكن وجه رانيا هو الذي بدا مختلفًا، بدت أكثر حشمةً، أكثر أمومةً، وجه آخر للفتاة اللبنانية التي تروج لها قنوات التلفزيون –عارية إلا من قليل من القماش– فبمجرد أن نزلنا من الفان أخذت الأمور في يدها، قدرة فائقة على الترتيب، لا فقط ترتيب الأشياء، بل البشر أيضًا، وما إن انتهى النهار، حتى عرفت أن هذه البنت «السفروتة»، قليلة الحجم، كانت تحمل الآر بي جي وتقاتل في أحراش الجنوب، حتى أُصيبت في جانبها الأيمن، وكان هذا هو سر ما كانت عليه من اعوجاج تحاول إخفاءه، لكنه كان يتغلّب عليها ويظهر على هيئة تعب، وكنت أظن أنا نفسي أنه نوع من شغل البنات بادعاء الأنوثة.

كانت الريح قد بدأت في شد حبال الخيمة الكبيرة التي كنا نجلس تحتها على مساند متجاورة على هيئة مستطيل من ثلاثة أضلاع، ضلعه الرابع يشكل باب الخروج، وكان أبو محمود قد ظهر على هيئة بدوي يلهج بعبارات يوجهها للخدم الهنود في تلك اللغة الخليط التي كانت مفهومة لهم بشكل واضح، وتحتاج منك

لعدة سنوات لإتقانها، وهم يرفعون الصواني المملوءة بالكبسة، أو أواني الخضار، ويعملون في صمت لكن بابتسامة، لا تخلو من خبث، على هذا الأعرابي الذي كان يعود في هذه اللحظات إلى تلك الصورة القديمة للبدوي المضياف، تلك التي تحاول الحياة العصرية المفروشة بالموكيت إخفاءها، وكان أبو محمود مستمتعًا بهذا الدور، لكن المفاجأة أنه سألني بعد أن انتهينا من الطعام، وبدأنا في تدخين الشيشة ما إذا كان من الممكن أن يظهر عبد الناصر مرة أخرى في مصر؟

لم أعرف حقيقة بماذا أجيب، تلعثمت فقال:

– أنا أعرف. لا. الميت لا يعود.

وقالت رانيا بصوت مبحوح من الطرف القصي من الخيمة:

– نحن كلنا أموات يا أبا محمود.

ازداد شد الريح لجوانب الخيمة، فخرجنا جميعًا نحتمي بالفان، والسيارات الأخرى المرصوصة في الصحراء على امتداد البصر، قبل أن تعصف بنا بشائر الخريف، ورحلنا، تطلعت من النافذة: الصحراء هي أنا أيضًا، أقصد، يا لغفلتي، أنني ابن الصحراء التي أحاطت بالوادي فخنقته.

(باب)

في

ثياب الرسَّام

«ورأيت نفسك
كما لو كنت ترتدي
ثياب رسَّام شعبي
يرفع الفرشاة عاليًا
ويصور الخروج الكبير
على جدران البيوت».

كم ساعة مرت وأنا غارق.. نعم غارق، فكل المشهد يا ضحى جرى في الموانئ، لا، ليس كله، بعضه جرى في البحر، البعض الآخر على الطرق السريعة، في المطارات، تحت، أقصد فوق. لا. داخل. وكان الحر شديدًا والعرق يجري في الأخدود، ثم ترتفع به الأمواج وتقذف المراكب إلى الشواطئ، إلى الرمال الغرقى (آلاف المهاجرين) والأيدي تتشبث بالغصون الطالعة من الصخر الذي ينتفخ ويرسل الحمم –ملايين الكتل– إلى الأعلى حيث ترى الوجوه المذعورة بين النار والأيدي (المهاجرين) تتدافع عند مداخل البوابات: ترك. تراك. تاك. تنكسر ذراع الصبية. ينفجر الوجه بالصوت: يا دهوتي، يا نهار احوس، يا نهار موش فايت. دا جحيم. دا يوم الحشر يوم القيامة احفظنا يا حفيظ، وتتصاعد العواطف، تفرش نفسها كالمرآة على البهو المكتظ بالأجساد الغليظة للنساء تتحرك عجيزاتهن هن هن بالمنفلة التي تدور فتتحرك السيور بدورها محملة بالزاد: صفائح المش وصفائح الفول الناشف وصفائح الفسيخ أيضًا والملوخية الناشفة والثوم ولفافات

البط والإوز المقدد والأرانب المقددة أيضًا ولفافات الفطير المشلتت والعسل الأسود والعسل الأبيض والجبن القريش وبرطمانات السمن البلدي والزبد والقشدة وأكياس القماش القطن مملوءة بالشعرية وأكياس الكتان مملوءة بالحلبة الناشفة والعدس الأصفر والعدس أبو جبة وأكياس البلاستك مملوءة بالكركديه و(آلاف) العرقسوس والتمر هندي والشيح وقشر الرمان والشطة والكمون والكزبرة والفلفل الأسود وعلب الأدوية ريفو للصداع وقطرة البريزولين للأنف والعين ومرهم هيموران للبواسير والفحم للغازات والبلاسيد لتقلصات القولون والانتفاخ نفس انتفاخ إخناتون يبرز الكرش قليلًا للأمام في بعجرة تلوي تناسق القوام نعم، وكل الناس لهم كروش، فلمَ لا يكون لي أنا أيضًا كرشي؟ كما في جسد الفرعون الحكيم الذي كان يرتدي على جسده إزارًا خفيفًا يلف به وسطه، لا كما نرى هنا في قاعات المطارات أو هناك على أرصفة الموانئ أو محطات الأتوبيس، هذا الخليط من الجلاليب الصوف والجلاليب الدمور والعباءات والبدل الكاملة والبنطلونات الجينز المحزقة خصوصًا على أجساد البنات: بنت المستشار السنيورة وبنت الطبيب والمدرسة الشابة التي ستخلعه بمجرد أن تنزل وترتدي العباءة التي فضل بعضهن ارتداءها من الوطن ولففن حول وجوههن المكتنزة الحجاب أو الطرحة أو الإيشارب أو النقاب أيضًا فلا ترى سوى العينين المحدقتين، وتخال أن هناك جمالًا خفيًّا غامضًا،

لكنك تصطدم بزوجها الشاب الذي يزن نصف طن وهو يرتدي الجلباب الأبيض القصير، ويعقص فوق رأسه عمامة لها ذنب من الخلف، وهو يرمقك متشككًا بينما تطالع أنت بميكانيكية الخوف كندرته أفغانية الشكل، آه ويا للتعب وتتمدد الأجساد على المقاعد البلاستيكية غير المريحة، ويا للتعب (الآلاف) وتنتظر وأنت تقلب الصحيفة، ويا للتعب إن كان هناك مكان لك تحت شمس السعودية أو الكويت أو أمريكا أو حتى بلاد واق الواق، هو أنت ذاهب إلى عمق الليل لا إلى نهايته، ربما هناك تمشي وأنت تحمل على كفك سراجًا مطفأً ملفوفًا في جلد غزال مدبوغ تطلع خلف الجمل وهو يسير في اتجاه نبع الماء، لكنك تجد نفسك وأنت في اتجاه المقهى الشعبي القديم المسقوف بالسقالات، حيث تتدلى المشكاوات النحاسية وتأتيك من الخلف روائح العطارة النفاذة، ثم تذهب لتأكل الفالوذج الذي قرأت عنه في الكتب ولم تره حتى عزمك عليه زميلك الكويتي من أصل إيراني ماجد سلطان الذي تحدث مع صاحب محل الحلوى الإيراني بالفارسية، وأعترف لك بأنه يتحدث مع جدته بالفارسية أيضًا في البيت، وأن هذا الفالوذج ما هو إلا حلوى مثلجة (آيس كريم تقريبًا) مضافٌ إليها مواد مجلوبة من إيران، وأن أصله إيراني، وهو هناك حلوى شعبية، وأنت ظننت طوال عمرك أنه طعام من أطعمة الملوك لكثرة ما أشادت به كتب التراث التي شحذتها المخيلة بما تثيره أجواء

الممالك من الأساطير التي يحلم بها الفقراء ويحكون بها في لياليهم، مما يشكل تراجيديا عبثية. لا. تراجيديا رهيبة. لا. تراجيكوميدي. لكنك لن ترى الناس على حقيقتهم إلا ساعة الخروج مشردين تقصف السماء على رؤوسهم كرات النار وتغرق أجسامهم في دوامات الدنيا (الآلاف)، وقلت لو أنك كنت رسامًا شعبيًّا من أولئك الذين يرسمون قصص الحجيج على جدران البيوت، لكنت رفعت الفرشاة عاليًا، وصورت قصص الخروج، قصة بعد قصة، قصة في قصة، فوق الأخرى، لأن الصورة هي هكذا: حيث تبدأ المشاهد بقطيع من الذئاب يهاجم البيت في الليل، وهي ذئاب جائعة شرسة مزقت أولًا أحشاء المواشي والخراف، ثم اندارت على الناس الذين خرجوا في خوف بملابس النوم كما في الزلزال وأنت نفسك خرجت في بيجامتك وتسميها رحلة الخروج الكبير من كل الموانى والمطارات والمعابر، ولو أنك أردت لرأيت الرؤوس المشرئبة والرقاب المعلقة على الصواري والأيدي المرفوعة المتشنجة الممتدة لأعلى تهتز وكأنها طالعة من مرجل ضخم يغلي فيشعل السماء، بينما أنقاض الجدران تسقط فوق الرؤوس، فتنفجر الجماجم وتتمزق السيقان وتتطاير الأيدي المقطعة، بينما الشوق يأخذك كمجنون تهذي.. نعم لا بأس هناك أراه خلف الحائط داخل الجدران المهدودة التي تنفرج عن سلسلة ضخمة تنزل من الأعلى لتمسك برقبتك فتقف فزعًا، وكان الحلم قد أخذك إلى أماكن خطرة،

وجدت نفسك محشورًا فيها بين الأثقال، حتى اختنقت، وكدت تنتهي، لكن ربما هي الرغبة في الحياة، هذا الشيء الغريزي الذي لا يد لك فيه هي التي جعلتك تنتفض وتقفز مستيقظًا، فتجد نفسك بالفعل غرقان خائفًا، يداك ترتعشان، ونفسك مقطوع بعد لهاث طال في المفارز، لكن المشكلة أن ضحى تنتظر رسالتك دون خوف وبكل براءة، لكنك لم تكن ترى المشكلة في أن ذلك قد حدث، لكن تكراره هو الذي دفعك لأن تفقد ذاكرتك تقريبًا، كمن ضرب على يافوخه في الوقت الذي أحاطت بك الريح المحملة بالأتربة، ويسمونها هنا الطوز، ويسمونها هناك الخماسين، وهي على أي حال محملة بالمرارة، وتعود إلى رقائق عرب البادية، فتجد أنهم ومنذ فجر الخليقة عرفوا أن الشهور القمرية لا تتواءم مع فصول السنة، فعمدوا إلى ابتداع طريقة يعرفون بها الفصول والمواسم، وأسموها السنة الشمسية، وجعلوا بدايتها من طلوع سهيل وهو يوافق ٢٤ أغسطس، وسميت السنة السهلية، وقد اختاروا سهيلًا؛ لأن ظهوره بداية للانفتاح الفصلي، فسكان الصحراء الجافة تهب عليهم في الصيف ريح السموم وطلوع سهيل عندهم يعني الكثير، حيث يفيء الظل بعد أن كان منعدمًا خلال الصيف، ويبدأ طول الليل، وقصر النهار، فيبرد آخر الليل، وتهب ريح الجنوب الرطبة، فتخف من لهيب الهواء الساخن اللافح، وتميل الشمس نحو الجنوب، بعد أن كانت عمودية في فصل الصيف، حيث يبدأ

موسم الرطب الجديد، وينتهي موسم ادخار التمر، وتبدأ الأغنام في الإحساس بالراحة فتدر اللبن، لكنك مهما توهت مع محاولة الإنسان للتحكم في الطبيعة، ستجد أن هذه الطبيعة نفسها، هي التي ألقت بملايين البشر في المعابر وهم يرتعشون من الخوف من المجهول تأخذهم اللهفة للوصول إلى حل للمأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه لا بفعل الطبيعة بل بفعل البشر القساة الذين شكلوا تنظيمًا سريًّا. لا. علنيًّا. لسرقة حياتهم، وكتابة تاريخ جديد، هو تاريخ الهجرة، حيث يتدفق مئات الألوف إلى أي مكان وهي حقيقة جديدة لم تكن من قبل كما هو الحال مع اللبنانيين الذين هم شعب مهاجر وهي حقيقة جديدة؛ لأن أجدادنا لم يعيشوها وهي حقيقة مرة لها طعم العلقم؛ لأننا ولأول مرة منذ آلاف السنين تركنا خلفنا أرضنا ونساءنا وأطفالنا تنهبهم الذئاب وتعبث في ثمارهم الثعالب الصغيرة المفسدة الكروم، وقد يكون هذا هو الشعور نفسه الذي دفع البدوي العجوز للصراخ طوال الوقت، وهو يحاول الفكاك من أفراد أسرته، ويقول: اتركوني أعود إلى الصحراء، أنا البازي، أريد أن أحتضن العراء بكل روحي. لكنهم اعتقدوا أن الرجل قد جُن، فأودعوه مستشفى الأمراض النفسية، لكن الطبيب رفض بقاءه، واعتقد أن الرجل يقول كلامًا حكيمًا، وأنه ملَّ من النظر إلى التلفزيون ورؤية البنات اللواتي يرقصن ليل نهار، وكأن مهمة البنات في الحياة هي هذه الطريقة السخيفة في

هز الخلفية، وهو هز يفتقد حتى الروح عكس ما كانت عليه الراقصة سامية جمال مثلًا، لكن البدوي خلّص أهله من المشكلة على أي حال، ومات وقد حزنت عليه أنا فعلًا، وقلت إن هؤلاء الأبناء والأحفاد لا يستحقون مثل هذا الرجل الذي تمنيت أن أكون في مثل شجاعته لأهتف مثله برغبتي الحقيقية التي تشبه في وجه منها تلك التي طالب بها ومات في سبيلها؛ لأنه من المفترض لي أن أفعل شيئًا –أي شيء– لا من باب البطولة فقط، ولا لأن هذا ضروري، أو غير ضروري، بل من أجل أنك تريد أن تهرش في يدك فتهرش فيها؛ لأن البطولة قد تعني لي الآن مجرد الطعام والشراب وبعض الجنس لو أمكن، أو التسلية التي تُزجي بها الوقت ثم لا شيء آخر، فإذا كانت هذه هي كذلك بالنسبة لي وربما مغامرة صغيرة مع بنت سمراء ساخنة لطيفة مثل ضُحى التي تحبك هي أيضًا وتعطيك نفسها وتبربش بعينيها وتترك يدها الضعيفة المبللة الرطبة في يدك ولا أكثر من ذلك ما دمت لم تنهب شعوبًا أو تعبث بمصائر أمم، فماذا في هذا إذا كانت المسألة هي أنك تريد أن تأكل دجاجة فتذهب وتأتي بالدجاجة وتأكلها، أو أنك لا تريد أن تأكل فلا تأكل بل تشرب الشاي بالنعناع استكانة بعد أخرى، ولا شيء آخر ولا تأكل، لا تشعر بأنك تريد أن تأكل، فهل من الضروري إذنْ أن تفعل هذا الشيء، وأنت لا تريد أن تفعله، بل إنك فعلًا أكسل من أن تفعله، فهل من الضروري أن تقوم بشيء خارج مدوٍّ يلفت

النظر يجعل الجماهير المحتشدة تصرخ: يايايااياه. تهيج: وووووه. جوووووون. فماذا لو كان فعل البطولة الوحيد الذي تريد أن تقوم به علاوة على الأكل والتبرز والعمل البسيط الذي يأتيك بما يكفيك لتأكل وتتبرز وتنام هو أن تجلس مع نفسك في هدوء وتكتب رسائل بالقلم الحبر للذين تريد أن تكتب لهم حتى ولو لم ترسلها، فماذا في هذا لو أنك رحت تكتب لهم وتكتب دون أن ترسل أيًّا منها فلا بد أنك تعتقد أن هذا غير صحيح، لكنني أعتقد أنه صحيح، فأنت تعتقد، وأنا أعتقد، ولكنَّ أيًّا منا لم يضر أحدًا ولم يشرد شعبًا أو يهدم بيوتًا فوق رؤوس سكانها الغلابة كما يحدث في غزة ونابلس ورام الله، ثم إنني وبالعودة إلى معني البطولة أرى أن المرأة التي جرستها الصحف لأنها فعلت أمورًا رأت الصحف بأنها لا تليق بامرأة، ومنها أنها ادعت أنها أم أسير من أسرى صدام حسين الذين ذهبوا ولم يعودوا، ولا يبدو أنهم سيعودون، وهي في الحقيقة مجرد أرملة وحيدة لديها ستة أبناء، وليس لها عائل، وهي لها برنامج يومي وصفته صحيفة الوطن العربي بكل تفاصيله، وقالت إنها تبدأ يومها بالمرور على شارع الصحافة لتحصل على نسخ مجانية من كل الصحف، ثم تعود وتبيعها للبقال الإيراني المجاور لبيتها، ثم تذهب لسوق الشبرة لتشتري أرخص الخضار واللحوم، وفي طريق عودتها إلى البيت تمر على الجمعيات الخيرية لتتسمع الأخبار، وتضع اسمها في كل قوائم الهبات

والحسنات الممكنة، ثم تعود لترعى صغارها الذين تركتهم مع خادمة سيرلانكية وجدت في بيتها مأوى لها في فترة ترانزيت ما بين عمل وآخر، فهي تأويها بالمجان مقابل أن تخدمها هي أيضًا بالمجان في هذه الفترة، ثم تعود في رحلة العصاري للشارع لتتقدم للمسابقات التي تجريها الصحف والمجلات باسمها وأسماء أبنائها، ثم تذهب مساء لجولة يومية على الجلسات النسائية، وتظهر في مظاهر مختلفة مرة على هيئة خاطبة تعمل على لم الرؤوس في الحلال، ومرة على هيئة وسيط ما بين امرأة يعذبها زوجها بمغامراته النسائية وبين شيخة تعمل على تليين قلوب الرجال وإعادتهم إلى نسائهم صاغرين باستدعاء الجان وكتابة الأحجبة، حتى وقعت الفأس في الرأس، وانكشفت لإحدى النسوة المتنفذات، فأمسكت بخناقها وبهدلتها، بل مزقت ملابسها، وأبلغت عنها البوليس باعتبارها مشعوذة، ولم ينقذها سوى الكاتب الصحفي سليمان الفهد الذي أخرجها بضمانه، مما سبب له متاعب كبيرة مع قطاع عريض من المجتمع الذي لم يرضَ عن أفعال هذه المرأة التي زعموا أنها أفعال خسيسة، وأنا اعتبرتها من قبيل البطولات التي تستحق الذكر، بل إنني تمنيت أن أتعرف عليها لكن صحيفة الوطن العربي التي تابعت الموضوع بإصرار، قالت: إن محررتها ذهبت للبحث عن المرأة فوجدتها قد حملت صغارها واختفت، وقد رأيتها أنا فعلًا في أحد أحلامي تحمل زادها على

رأسها وتجرجر أطفالها خلفها وتعود للصحراء إلى حيث أراد ذلك البدوي الذهاب ليلتقي بروحه التي أردت أن أرسمها على جدار البيت بفرشاة الرسام الشعبي العتيد الهاوي الذي لا يتقن عمله، لكنني استيقظت علي أصوات آلاف الأطفال والعقبان النسور الصقور تطاردهم، فيسقط بعضهم خارج اللوحة في ماء الخليج من ناحية اليمين والبعض الآخر يهوي في جوف الرمال التي تبتلع الرؤوس وتلفظ الأقدام والأيدي، فتأخذني الحماسة وأغمس الفرشاة في إناء اللون الكبير وأرفعها عاليًا لأنثر الألوان على السطح الخشن، فإذا بالرعد يبرق وتنفجر السماء باللهب وتأتي الطيور لتسد عين الشمس الشمالية، لكن العين الأخرى تساقط حبات اللؤلؤ التي تشخلل برنين متفاوت الأصوات هو خليط من أبواق البواخر وسارينات الأتوبيسات وهدير الطائرات التي للأسف أكتشف لأول مرة في هذا الحلم بأن ليس لها أبواق أو كلكسات، الأمر الذي يجعلها تتصادم في الهواء لتبدأ فرق الإنقاذ وهي تجرجر الكلاب المدربة في البحث عن بقايا الأشلاء الممزقة، فلا تجد في الصورة سوى الممثل العالمي «توم هانكس» في فيلم «كاست آويي» وحيدًا في الجزيرة القاحلة وهو يتلهف لخلاص روحه ويبدأ في اكتشاف النار من جديد. يكتشف النار من جديد على الرغم من أنه مثّل هذا الفيلم في نهاية القرن العشرين، وماذا في هذا؟ فأنا أحلم بأن أكون رسامًا شعبيًّا فقيرًا من رسّامي قصص الحج علي البيوت الريفية

يحصل على أجره على هيئة حفنة من القمح أو حفنة من التمر أو بضع بيضات مثل «توم هانكس» الذي مع مرور الوقت وهو وحيد في الجزيرة المهجورة يرسم أيضًا على جدران الكهف خيالات يأنس لها، بل إنه يتحدث إليها حتى تقع عيناه على كرة وجدها بين الأنقاض، فيرسم لها عينين وشفتين وحاجبين وأذنين وفمًا وأنفًا، ويسميها ويلسون ويحملها معه على عبّارة على هيئة مركب صنعها من جذوع أشجار الجزيرة، يعوم عليها ليعبر المحيط إلى الجانب الآخر، إلى نهاية الليل، إلى آخره، حيث الضوء الخفيف، «إلى الحبيبة التي تنتظره هناك، لكن ويلسون، الذي على هيئة كرة، ينزلق من بين يديه إلى عرض المحيط، تأخذه الأمواج بعيدًا فينادي عليه: تعال، أنقذني، لمَ ابتعدت عني؟ لمَ تتخلَّ عني وأنا في غياهب الموج؟ لم تتركني وحيدًا وأنا أحتاجك؟ لكن ويلسون يبتعد، يغيب، حتى إنني أستيقظ من الحلم، لا لأبقى هناك، بل لأدخل في آخر أجرجر قدمي وأنا أشعث أغبر أمشي في الطرقات حتى ألتقي رضوان الساعي البطل اللا بطل لرواية «عطلة رضوان»، الرواية الوحيدة التي استطعت إتمام قراءتها في حياتي كلها، بعد كتاب «قصة الحضارة» وظل بعدها رضوان يطاردني ولربما كان هو سبب تفكيري في الخروج، في الهجرة، لا إلى أي بلد بل إلى بلد محدد، إلى نيبال، وهو ما جعلني آتي إلى هنا لأجمع المال لأذهب إلى هناك، حيث يمكنك أن تعيش في غابة لا تستمع فيها إلا

لأصوات الطيور، وهو ما لم أتحدث به لأحد، لا لضحى أو ولاء، لا لعادل أو باترتسيا، لا أحد على الإطلاق، فهو سري الدفين الذي ربما وصلت معه إلى نهاية الليل، إلى الغسق، إلى نقطة صغيرة من الضوء الخفيف في ظل غابة على قمة جبل، حيث الأصوات أغنية خفيفة تتواصل على إيقاع الأغصان وهفهفة الأجنحة، بينما الجنيات الصغيرات الناعمات المتسربلات بالخضرة يرقصن متشابكات الأيدي حول الأشجار في ضوء القمر، يعشن في الزهور ويأكلن العسل، هربان؟ وماذا في هذا؟ لكن هارب مِن مَن؟ لم تستطع استكمال المشوار مع ولاء، ولا باترتسيا، ولا ضُحى التي ضحت من أجلك أحبتك وأرادتك وغامرت معك بالسفر عبر القطار إلى الإسكندرية حيث البحر، نزلت معك في شقة صديقك، وسبحت أمامك بالمايوه البكيني، وكانت فرحانة وهي تقول أحس وكأنني مي زيادة، ولماذا مي زيادة؟ لا أعرف، هي أنا هكذا أحس الآن، ولكنه من ناحية المبدأ لم يكن أمامي سوى الهرب، فكيف لي أن أتحمل المسؤولية وليس لدي زاد أو زواد، على أي حال أعترف لكِ يا ضُحى بشيء مهم جدًّا خطر ببالي أن أحدثكِ عنه الآن، لا أعرف لمَ، هو أنني قد أكون الرجل الوحيد في هذا العالم الذي يحمل معه دائمًا في حقيبته مرآة صغيرة لا تفارقه، لزوم رؤية الوجه، دون أن تكون لديه ميول أنثوية (يمكنك أن تقطعي بذلك بعد التجربة) لا طبعًا، لا يصح أن أكتب هذه الجملة، إنها قاسية جدا، قاسية إلى

حد لا يطاق، فأنت لست متهمًّا على أي حال، لست متهمًّا لا بهذا أو بذاك، وكانت عندك لحظات فرح أيضًا، مثل تلك اللحظة التي انتابتك بمجرد استيقاظك من النوم وأنت تحس بأنك مواطن أمريكي يتمرغ في النعيم، كما تلك اللحظة التي أحسست فيها بأنك على قمة جبل في نيبال، لكن هذا لا يساوي أبدًا هذه اللحظة وأنت تكتشف الآن، ورطوبة الراحة في صدرك، بأنك –ويا للمفاجأة– لم ترتكب أي جريمة، لم تقتل ذلك الرجل ولا تلك المرأة، لم تخنق الفتاة التي كانت تتمخطر في سوبر ماركت سلطان نصف عارية غير مبالية بأننا في الجزيرة العربية، مع أنك دائمًا تنفي عن نفسك بأنك ذكر شرقي يرعى النساء في قاعة الحريم وهن جالسات أو واقفات راقصات أو يتثاءبن يرفعن الأقدام والسيقان ويضربن على الدفوف ويهزجن بالصناجات أو ينثرن البخور ويمددن اليد بكأس الشراب، ولكن مهمتك الأولى أن تحوّط على كل أنثى ممكنة وتراقب كل ذكر يقترب منها (عامل) تنظيم سري خاص، لوحدك، تتصل بالنساء، بالرجال، تحذر هذه، تنذر ذاك، وأنت أصلع وتقول أن الصلع علامة الرجولة، فلتحتفل إذنْ ببراءتك، صحيح أن هناك تقصيرًا من ناحيتك تجاه عدة أمور قد يكون أهمها أنك لم تكمل أيًّا من الرسائل التي تجرأت وكتبت بداياتها، أو تلك التي رحت تهذي بها بينك وبين نفسك، تقولها بصوت هامس داخلك، حيّرتك لأنك وجدت الأمر صعبًا في التعبير عنه، حتى إنك

استعنت بالقاموس فوجدت أن أهل الاختصاص يسمون هذا مونولوجًا، وأن هذا المونولوج ما هو إلا استبطان يهذي فيه المرء بلواعج النفس، وهو ليس حلم يقظة كما كنت تظن؛ لأن هذا شيء لا يخرج عن النفس ويبقى عالقًا فيها، فلا تترتب عليه أي مسؤولية من أي نوع، وقد يكون مجرد تعب يحتاج تشخيصًا فماذا سيقول الأطباء يا تُرى عن حالتي؟ ماذا سيقول الدكاترة والعلماء، ماذا سيقول الخبراء ومَن في أيديهم أن يقرروا أمري، ويحكموا أسري، ويجعلونني بالكاد أبين، ماذا سيقول أطباء الأمراض العقلية، والعصبية، والنفسية، أطباء الأذن والحنجرة والأسنان والنظر، أطباء أمراض القلب واللسان، المرارة والكبد والطحال، أمراض الرئتين والقفص الصدري، ماذا سيقول علماء الاجتماع والأنثروبولوجي والآثار، علماء الجينات والخلايا، علماء الإجرام. لكن. بجد. دعنا من المزاح السخيف، والافتراضات العتيقة. وفهمني سر حالتك، أبدًا لم تستطع أن تستقيم مع امرأة واحدة، مع فكرة واحدة، مع عمل واحد، مع مشروع واحد، مع مكان واحد، مع زمان بعينه، مع شكل، مع اتجاه، مع حركة، مع شيء واحد تعتقد فيه وترمي عليه همومك كما يفعل كل البشر، أنت متعب، متعب، لا تلوي على شيء، نهايتك أيضًا لن تكون واحدةً، لو استقر بك الحال لتكون فعلًا رسّامًا شعبيًّا يحمل صفيحة الجير الملون والفرشاة الكبيرة ليدور على القرى والأنحاء يرسم الأطراف المدلاة

من المراكب الغرقى والشاحنات المحطمة على الطرق السريعة والطائرات المحترقة في السماء في لوحة الجحيم التي رسمت في وسطها جماعة المكفرين بلحاهم وهم يمسكون بالثعابين على هيئة أسواط ملتهبة يضربون بها رؤوس الذين كانوا يصفونهم مرة بالزنادقة ومرة بالمهرطقين، ولكنهم في كل الأحوال هم كفار يمشون بهم في اتجاه الجحيم حيث المخابئ والصوامع والزوايا والكهوف والخلوات في مزارع القصب والقطن والكراث والفجل والشطة واليوسف أفندي والموز واللارينج والشرطة والكلاب والرصاص والحرائق، ورأيتُ وجهًا يصرخ أعلى القاهرة: هاجت على بعضها الخلائق والراقصة تسبح في بركة الماء أمام تمثال رمسيس في باب الحديد، والقطارات تخرج صارخة عن القضبان تندفع إلى الأسواق تنفث الجثث وتحرق العشش صارخة، والخلق يندفعون فتجد نفسك محاطًا بالشخوص كمؤلف محاط بهؤلاء الذين يبحثون عنه ليؤلفهم من قلب المتاهة التي تتجول فيها لتصل إلى النهاية، لكن المتاهة تدور بك وتعود وتلف في هذه الحكاية الخرافية والرواية الكاذبة الأسطورة التي لا تعرف لها ملمحًا ولا تعرف فيها الآن وفي هذه اللحظة شيئًا ولا حتى شوقك؛ لأن تستطيع اتخاذ قرار بهذه الجرأة، وعلى هذا النحو أن ترعى ناقة لتشرب لبنها وتمد البصر عبر الصحراء الصحراء الممتدة، وتأكل التمر وجبن الماعز ولا شيء سوى جلباب رداء كندرة ولا شيء

آخر، لا بيت، لا تكييف، لا موكيت، أو غسالة فول أوتوماتيك، تعود إلى جدك تتعلق بلباسه تشم رائحة البعير فيه: يا ناس أنا ما لي ومال هذه الأشياء المطاطية، ما لي والسيراميك الذي يخنقني في الحمام، مالي وتعبئة برازي في المواسير، ما لي وهذه الفزاعة التي تضع على رأسها باروكة صفراء، وفي شفتيها ليب ستيك أحمر وحول عينيها آي لاينر أخضر أزرق، ما لي وهذه البزاز الجلد والرموش البلاستك والجزمة، الجزمة، الجزمة التي دفعت زوج صاحبتها للدخول في سرداب لم يخرج منه إلا حين رأى يوم القيامة والخلق يتدافعون بين الجحيم والمطهر يتقافزون بلا رحمة والأصوات تدفعهم لمزيد من الهلع، فهو الخروج الكبير المفتوح اللا نهائي الذي يقود إلى المتاهة التي لم تُسمَّ بذلك إلا لأنها صورة من صورة تدخل في صورة حيث تجدين نفسك يا ضُحى –مثلًا– في مقابلة تلفزيونية أو بالأحرى وهم يعدونك لهذه المقابلة التلفزيونية فأنتِ تجلسين أولًا في غرفة الماكياج، يزيلون عن وجهك الشعر الزائد، الزغب، ثم يخططون وجهك بالملامح التي يريدون أن تظهري بها (إن كان الموضوع كئيبًا فملامحك تبدو كئيبة، وإن كان فرحًا أو حزينًا فهم من البراعة لدرجة أن تصبحي على هذا النحو أو ذاك)، ثم يصلحون من هندامك (وقد يصل الأمر إلى درجة أن يخلعوا عنكِ ملابسكِ التي أتيتِ بها ليدخلوكِ في الملابس الملائمة) الحذاء والشراب أيضًا يجب أن يكونا ملائمين، ثم يأتي

المخرج ليصدق على مظهركِ، وغالبًا ما يطلب تعديلات (وإلا فكيف يكون المخرج مخرجًا؟)، ثم إنكِ تحسين بيد طرية تمسك بذراعكِ ترفعكِ لأعلى في درجة الوقوف ثم تسحبكِ –هذه اليد– إلى الأمام إلى ممر طويل طويــل مضاء بقوة، وتفتح اليد الباب وتدفع بكِ إلى استديو شبه مظلم. تقفين للحظات لا تعرفين ماذا تفعلين، حتى يصرخ المخرج: أجلسوها يا سلوى، تأتي سلوى لتأخذ بيدكِ إلى المقعد وتجلسكِ، وتعدل من هندامكِ، الإضاءة موجهة إلى عينيكِ (حتى لا تري شيئًا) حتى تتزغلل عيناكِ وروحكِ أيضًا، عرقانة، وقد يكون البرد في الخارج يجمد ملابس المارة، وتدخل المذيعة الشابة الرشيقة، التي لا ترين منها شيئًا في البداية، هي أيضًا تخضع لعملية إصلاح الهندام واللمسة الأخيرة من الماكياج، لكن، وربما بسبب وضعها كعضوة في المجموعة، وربما بسبب الخبرة، فإن كل شيء يتم بناءً على مزاجها، ثم يدخل الموضوع في الظلام، في الكلام الذي لا «يودِّي أو يجيب»، حتى تستيقظي من الحلم، فتدركين أنكِ كنتِ في مقابلة تلفزيونية جرت معكِ في الحلم، وأنتِ طبعًا تكونين قد صرختِ في المقابلة برأيكِ الذي قلتِ فيه يا ولاد الكلب، أيها الأوغاد، لقد حطمتمونا، نهبتمونا، جردتمونا من كل شيء، حتى ورقة التوت، وجعلتمونا عبرةً لمَن لا يعتبر ، ثم إنكِ ترين أن خطبتكِ العصماء هي بدورها ذهبت مع الريح التي نسميها نحن الخماسين، ويسمونها هنا

الطوز، ويا لها من كلمة تجعلك فعلًا تطوزين؛ لأنكِ فعلًا عند هبوبها تذهبين في حالة قرف وكره للحياة كلها فيما هو أشد من الاختناق، من عدم القدرة على التنفس الذي يجعلكِ غير قادرة على الحركة، على ملء الجوف، على التبرز، على ممارسة الحب الذي يكون هنا أصعب الأشياء وأندرها، فأنت في ضياع بين حشد المضيعين الممسكين بالأيدي متضامنين في سرحة السرحات التي يعلوها الغبار وتحف بها النيران وتطوقها الكلاب الضالة وتركض الخيول المجنحة (بالأجنحة) في نهاية المشهد؛ ليظهر من وسطها ذلك القديس الملتحي الممسك برمحه، وعلى رأسه قلنسوة الحرب، ومن كتفيه تنزل العباءة المطرزة بالحكمة: العدو أمامكم والبحر خلفكم، لكن لم يظهر سوى العدو من كل اتجاه طوق أعناقكم بالسلاسل المعلقة إلى السماء والطيور تتجمد فوق الرؤوس، حتى ساد الصمت ولم يظهر سوى صوت ذلك العربي الطلوقة الذي صورته الأفلام الأمريكية مؤخرًا وهو محاط برهط نساء يداعب هذه، وينط على تلك لكنه لا يفعل شيئًا حقيقيًّا (ولا حتى الجماع الرجولي)، لكن ملامحه تنز بالنذالة وعينه بالقبح ونفسه بالبخل، كما كانت المسرحيات القديمة في بلاد الفرنجة تصور اليهودي أبا قتب وهو يحتضن رزم النقود وينظر بعينيه لزوجته بخوف وهو يموت في صندوق مع كنزه الذي وفره من قوت عياله، ثم يدخل في حارته في زقاق اليهود في قاهرة القرن الثامن عشر قبل أن تدق الطبول تدق

الطبول تدق الطبول بالعداء الذي انقلب على صاحبه، ولم تكن تتخيل يومًا أن تعيشه في نفسك حتى ولو لم تكُ/ تكن رجل سياسة أو رجل حرب أو رجل مال، إنما أنت فقط رجل يومك تجري على رزقك ورزق صغارك، لكنك ودون إرادتك لا تستطيع أن تفلفص من قبضة ما جرى وما يجري وما سيجري، يخنقك بالحبل ويطوح عنقك بالألم، ويغز السكين في جنبك، فتسيل دماؤك وتجري لتدوس عليها الأقدام آلاف الأقدام آلاف الأقدام في مداخل الموانئ وعلى الحدود الممتدة المحوطة المحاطة بالأسلاك الشائكة والمطارات المدججة بالكلاب البوليسية والقوات الخاصة ورجل المطافئ العجوز يضرب كفًّا بكف ويعجب من كثرة الخلق وتلونهم، ثم يقوم ليكافح النار، فإذا بالزلزال، فيقوم ليكافح الزلزال، فإذا بالفيضان الذي يأخذه بين آلاف الجثث فلا تنفعه قلنسوته ولا خرطومه ولا حذاؤه الطويل ولا البلطة ولا الصفارة ولا الحزام ولا الجنون.. الجنون نفسه لا ينفع رجل الإطفاء كما لا ينفع الجاونتي الذي يلبسه محمود الجزار قبل أن يبدأ في قراءة الصحف لينام بجوار القط وبقايا قصاصات إعلانات الصحف التي كان يجمعها، ثم أصبح يجمع صور أثداء النساء أو علي سليمان الذي هتف: الدنيا مسرح صغير. إطاراتك أشبه بإطارات المسرح ترسم ملامحك على مرآة النص ألا ترون لقد قالت لي لأن شاربك وسكسوكتك والبيريه، لماذا تلبس البيريه؟ هل من أجل تغطية صلعتك، لكنها خفيفة

فأنت لست أقرع بالكاد مع أنه أقرع فعلًا، لكن انظري ما وصل إليه حال الرجال لا، لا، لا، لكن ما خطب به ذاك اليوم لا يساوي شيئًا وهو يقرأ قائمة الأسماء التي نشرتها صحيفة الوطن نقلًا عن صحيفة القادسية للأسرى العائدين إلى أرض الوطن وضمنهم شعواط. حنتوش. حلبوس. بهدلي. دزه- بي. إموازي. مهلوش. خشيف. منخي. فنطول. طخاخ. تامول. بعنون. شمار. عرد. رسن. كجيط. منخي. زغير. بديخ. مكصوصي. محيس. شليح. غليفص. خرينج. عميص. موعيزي. صنيدح. وقامت خناقة في الشلة بين فريقين، فكان منا من يرى أن هذه تريقة على خلق الله وهذا حرام، وكان من رأيي أنها مجرد فقرة فكاهية وأن محمود الجزار رجل مسكون يمشي في الطرقات ويتحدث ثلاث لغات هندية تعلمها على يدي البقال المجاور هي الكانادا والمالابالام والغوجاراتي، ويظن أن العالم يتمخطر من خلاله وهو يجرجر عشرات الصحف خلفه والحقيقة أنه يسير منومًا بجوار القط، ويكرر الرسالة التي وجهتها الصحف المصرية عام 67 لـ«ستات البيوت» المصرية «في حالة إعلان الحرب»، ويلهج بها دون أن يستطيع أحد إيقافه: تعرّفي على علامات الإنذار المختلفة لتستطيعي أن تفرقي بينها، فابتداء الغارة «ينذر» عنه صفير متقطع لمدة دقيقة، وإنهاء الغارة «ينذر» عنه صفير مستمر لمدة 45 ثانية، تأكدي من وجود أدوات الإسعافات الأولية عندك في البيت وخزني كمية مناسبة من الرمل

أو الماء كاحتياط ضد الحريق، حددي من الآن الأعمال التي سيقوم بها كل فرد من أفراد أسرتك في حالة حدوث غارة أو حالة نشوب حريق، احرصي على ألا يكون هناك أي مواد قابلة للالتهاب فوق سطح منزلك أو في شرفاته، اطلي زجاج النوافذ بالمادة القاتمة أو ضعي عليها ستائر بحيث لا يظهر منها أي ضوء من الخارج في حالة حدوث غارة، لا تروجي إشاعات أو تسمحي لأحد بترويجها؛ لأنها تحدث فزعًا وتضعف الروح المعنوية بلا مناسبة، ثم يقول: ضعيف. ضعيف. أنا ضعيف. أف. لكنني لم أستطع يا ليلى. أقصد يا ولاء أن أحتمل صوته الذي كان يردد آلاف الأصوات وأنا ما زلت هائمًا في بحار الليالي أنتظر المواعيد، لكنهم لم يكونوا قد جاءوا بعد؛ ربما لأنهم لم يستيقظوا بعد وكنت أنا –والحلم لم يزل– أتحدث عنهم، أتهجى اللغة المطلية بالغربة، المدفونة نصف قرن في الجرة الملأى بالملح، فكل هذا التزاحم والتشاحن قد أكد لي أننا في غابة مظلمة يلفها الصمت الرهيب، حيث تسبح في بحور الخضرة المنيعة عسيرة المسالك تتشابك فيها النباتات المفترشة الطفيلية التي تلف بمخالب وحشية أعناق الأغصان في سلسلة لا تنتهي من الأشجار تتضافر كلها لتؤلف منظرًا يجعلك تحس بالذلة والصغار وأنت تتشبث بالرقية في يدك المرتعشة في الهدوء المتربص، حتى ينفجر الرعد عبر الغابة ويدوي كمدفع يطلق حممه وراء الأذن لتضرب قواعد الأرض وتترنح ويتساقط المطر

والبرد من أعلى كأنما جيش يقذف بالصخور يهيل عليك الماء من قربة ضخمة ضخمة فتنقض الصواعق الملتهبة كالقنابل لتسدل سجف الظلام ألسنة وأستارًا من النيران البيضاء، فيكون خوف من نهر النار وخوف من الدودة التي لا تموت وخوف من الظلمة الخارجية، فتذهب لتتشبث بأمك تمسك بجلبابها وهي ترقيك من الجني داعوج الذي يأتي في الليل في ثياب قرمزية ليهاجم الضالين في الطرقات الموحشة ويأكل بعضهم (وينجو البعض الآخر من مخالبه، لكنهم يموتون في بيوتهم قبل أن يرتاحوا على أسرتهم)، ثم يغيب تحت الأرض على الرغم من ضخامته لتظهر زوجته شهيول فارعة الطول وهي ترتدي ثوبًا أبيض وتعيش في جذع النخلة وتعلّم الضالين من وراء زوجها كيفية اتقاء شره، لكن أمك ماتت منذ زمن ودفنت بجوار والدك في مدافن الوزير الذي سبقها ولم يبقَ لك من العائلة سوى عمة عجوز عادت إلى بلدها الأصلي في الصعيد واختفت أخبارها، فأنت إذنْ مقطوع الجذور، وتخيل نفسك بين يدي مؤلف روايات أحمق يسعى لأن يعبر عن مثل شخصيتك (مقطوعة الجذور)، فلا بد أنه سيرسم ملامحك لو كان يحسن كتابة الروايات التي امتهنها كل مَن هب ودب وتجرأ عليها، حتى إنك وقد كنت مدمنًا على قراءة الروايات تخليت عن هوايتك الوحيدة التي كنت تحبها بسبب هؤلاء الذين ملأوا الساحة ضجيجًا، وليس بينهم مَن هو كاتب روايات حقيقي الذي هو نبي عصري بمعنى

الكلمة، وهو بالقطع موجود وسيظهر ليملأ الدنيا روايات تخدش حياء القصة الكبرى، وإن كان يطالعك بتصوير حياة شخص يراه أصحاب العقائد غارقًا في التفاهة؛ لأنه يهوى شراء أوراق اليانصيب ويحلم ولا يكف عن الفوز بالجائزة الكبرى، وهو من جهة أخرى لا يكف عن جمع نتف النفايات من على الموكيت تحت تأثير نظرية متابعة النظافة بهذه الحركة التلقائية الدائمة، حتى لا يضطر لتشغيل المكنسة الكهربائية التي يدعي أنها تسبب له رعبًا من نوع خاص، ينتهي بصداع مؤلم ودوخة مثل تلك التي أحسست بها من نفسين من البانجو اللعين، الذي أضحى منتشرًا إلى درجة أن هذا الروائي يمكنه أن يصف هذا العصر بعصر البانجو وهو مطمئن بأنه لا مبالغة في الأمر وإن كانت نفوس الشباب في الجزيرة العربية كلها مكتظة بالرعب؛ لأنهم في السعودية يضربون رؤوس شاربي البانجو بالسيف، فتصور جسدك المرتعش ورقبتك تنز بالدم قبل أن تطلع روحك، فأنت تحس بالجرح في رقبتك كأنه.. ماذا.. كيف يمكنك أن تصف الموت قبل أن تجربه، فهذا شيء لا يمكنه أن يكون موضع نظر أو قياس أو كلام، وحتى تخفف عن نفسك عليك أن تقتنع بأنك لست في جدة أو الرياض، وإنما أنت في الكويت على الرغم من أن المسألة فيها إعدام أيضًا، وهو نفس الإحساس الذي تحسه وأنت ذاهب كل صباح للعمل، أو كما قال جاسم عبَّاس المحال على المعاش مبكرًا ليلعب في

البورصة، فهو أيضًا يحس بنفس درجة الرعب وهو يدخل مبنى البورصة، على الرغم من فخامته الزائدة؛ لأن خبطة واحدة يمكنها أن تزلزل كيانه صعودًا أو هبوطًا؛ لأنه كما يقول يمكن أن يكون الرعب ساعة الفوز نابعًا من خوفك من الذين خسروا؛ لأنه ما المانع من أن يدهسك أحدهم بسيارته ويفر في الظلام الدامس الذي تخفى به وارتكب جريمته من تحت سدله. وقال هذا الكويتي المسكين ذو الأصول الإيرانية بأنه تمنى أن يمتلك تلك القوة التي يتمتع بها «ص. م» السيلزمان وزوجته «س. ل» السيلزمانة اللذين يخرجان كل صباح وهما غاية في القوة، وفي يد كل منهما حقيبة بها عينات البضاعة، وفي دماغيهما خطة منظمة للإيقاع بالزبائن وتدبيسهم في صفقات ليست بالضرورة خاسرة، ولكنهم قد لا يكونون في حاجة إليها، ثم إنهما سيفران في النهاية إلى بلدهما، وهما يحولان مكاسبهما أولًا بأول، وما يمكنك أن تخرج به من كل ذلك لا فقط تلك الغصة التي تحس بها في بلعومك وأنت ترى أفواج الخارجين بمئات الألوف إلى حيث لا تعرف بالضبط إلى أين هم ذاهبون، وأنت تفكر جديًّا في كتابة وصيتك لتوزيع أراضي مملكتك على القنان، فتقف لتشير بعصاك «العوجة» إلى الحدائق الغناء وفيها الطواويس «تتمختر» على النجيل الأخضر والبط الملون يسبح في مياه البركة المباركة، والطيور من كل نوع ولون تتقافز فوق أغصان الشجر، وأنت توقّع على صكوك الهبة التي يكتبها مدير

الدائرة لابس الطربوش والمنديل المحلاوي، وهو يتأفف لعدم رضاه عن هذا القرار المتهور، لكنك سعيد وأنت ترى الفلاحين يبنون لهم بيوتًا تظللها الأشجار الباسقة ويرعون الغنم والأبقار والجاموس ويفلحون أرضهم إثر أول يوتوبيا متخيلة في العصر الافتراضي الذي تعيشه مع نفسك، ثم تقفز من الحلم على ضجيج عربات الكارو المحملة بالنساء العجائز المهاجرات إلى البلاد البعيدة والبغال تنهب الأرض، حتى يختلط الجميع في الصحراء الممتدة، حيث يبين من بعيد قصر أمير قبيلة عنزة، وهو أمير الأمراء، حتى ليقال إن الملوك والأمراء يستقبلونه على حدود بلادهم، فهو الذي يفصل في حوادث الدية، إن أمر استجاب الجميع، وهو يجوب الجزيرة العربية متخطيًا الحدود كما كانت كل القبائل تأتي وتروح، ولا تعرف حدودًا ومن حوله الجند الملثمون بالشماغ يمسكون بالبنادق في أياديهم المعروقة وينظرون بالشرر في أعينهم، كما يكون عليه الرجل الصقر، وهذه هي حكاية القبائل التي تجوب الجزيرة العربية منذ الأزل، وربما كان قريني هو ذلك الذي هناك يجلس القرفصاء ويمد يده للمنسف ويكور الأرز في كفه ويلقي بالكرة في حلقه، كما يفعل عرب الصعيد ورائحة الشواء تفوح من الخروف الممدد على السيخ يلفه الهندي على النار وهو ينظر في وجه قريني الذي ما إن رآني حتى جاء إليَّ وجلس القرفصاء في مواجهتي، وراح يناقشني في المشكلة مؤكدًا أن

الموضوع لا يمكن أن يستمر على هذا النحو، وأنه ما كان يجب أن يحدث ذلك؛ لأنه ليس من الممكن لأي بلد في العالم أن تحتمل أن يفكر شعبها كله في الخروج، حتى إن أم محمد بائعة الخضرة على قفص الجريد عند ناصية الحارة أكدت له أنها ذهبت لثلاث مكاتب من مكاتب وزير العمل لتسهيل هجرة العمالة، وأنهم طلبوا منها خمسة عشر ألف جنيه قبل أي كلام، ولكنها لأنها سيدة عندها خبرة في الحياة خاصة، وأنها كانت قد وقعت ضحية لعدة عمليات من النصب أكدت لمدير المكتب الذي هو في نفس الوقت زوج ابنة وزير العمل بأنها لا يمكن أن تخرج مليمًا واحدًا من صرة الفلوس التي تحتفظ بها في صدرها –وهو آمن مكان يمكن لامرأة أن تحتفظ فيه بنقودها في الظروف العادية– قبل أن تعرف بالضبط نوع العمل الذي سيسندونه إليها عند السفر، لكن المناقشة أغلقت عند ذلك؛ لأن الرجل قال لها بأنهم لا يضمنون الموت والدفن مرة واحدة، فقالت: إنهم يضمنون الموت فقط، لكنها أرادت أن تضمن الدفن، فكيف بالله عليك يمكن لامرأة مثلها أن ترمي بجثتها في الشارع والناس هذه الأيام بلا رحمة في قلوبهم؟ يمكن أن تأكلها الكلاب الضالة عندئذ؟. وأنت تعرف يا رفيقي أن المصريين يهتمون جدًّا بمسألة الموت، حتى إن الواحد منهم على استعداد أن يضع كل مدخراته في سبيل الحصول على مقبرة له ولأولاده كما حدث بالفعل مع والد ولاء الذي وضع مكافأة نهاية الخدمة في مقبرة

وجدها بعد أن داخ بحثًا عن واحدة، حيث راح ومنذ طلوعه على المعاش ولمدة سنة ونصف يبحث ويبحث.. كل يوم يخرج من السابعة صباحًا، ولا يعود إلا فى المساء وهو في صحبة سماسرة المقابر الذين أذاقوه مر العذاب، حتى جاء ذات مساء وهو يبتسم وطلب كوبًا من الشاي وزف الخبر وهو يدخن السيجارة من طيز السيجارة كما قالت ولاء، وقال: الحمد الله وجدت المقبرة. ثم إنه رفض الكلام عن الموضوع واعتراه الهم لمدة أيام، وظن الجميع أنه سيموت، ولكنه لم يمت، لكنه راح يجلس تحت الغطاء طوال الوقت يأكل أو يذهب للحمام ثم يعود للنوم! فيا لها من استراحة، وددت لو عملتها، وهو أمل لا يضاهيه أمل آخر حلمت به من قبل سوى العمل مهرجًا في سيرك يجوب البلاد ليلعب الألعاب التهريجية وهو يصبغ وجهه بالألوان ويعتمر الطرطور المرقع والجلباب المرقع أيضًا؛ وينفخ في البوق: طز، طز، طزطوووززززز.

* * *

(باب)

في

يقظة الناجين

(ف)

ميم الملاحظة

أظنُّ أنَّ من الأمانة أن أقوم بهذه المهمة على نحو مختلف عما كنت أفعل طوال حياتي.

عليّ أن أرسل هذه الملفات إليكِ أنتِ يا ضُحى بالذات، فأنتِ أولًا أكثر الأشخاص الذين يمكنني أن أأتمنهم على شيءٍ كهذا، وثانيًا لأنكِ مثلي تحبين التسلية بمثل هذه الحكايا.

لقد وجدتُ هذه الملفات التي تحكي قصص مَن نجوا من حادثتين؛ إحداهما لطائرة، والثانية لأتوبيس جرتا مؤخرًا لمصريين، ونشرتهما الصحف (وتحدثت بهما مطولًا القنوات الفضائية) في مغلف كُتب عليه اسمي وتركه (من تركه) أمام باب مسكني، وإذا كان لي أن أخمِّن اسم هذا الشخص (س) الذي ترك المغلف، فلا بد أن يكون هو علي سليمان؛ لأنه الوحيد من أفراد الشلة الذي يمكنه أن يصوغ هذه الحوادث على هيئة قصص.

(لقد تأكدت الآن –يا ضُحى– من أنه فعلًا يمتلك قدرات لا بأس بها في الكتابة.

عليّ أن أعترف له بذلك،

بل إن من الأمانة أن أبلّغ بقية أفراد الشلة بهذه المفاجأة؛ لأننا جميعًا شكّكنا في كلامه عن هذه المسألة.

لكن، وللأمانة أيضًا يا ضُحى، فإن حوادث عديدة من هذا النوع جرت طوال السنوات الماضية، لا فقط للمصريين المهاجرين، بل لآخرين من جنسيات أخرى، كما لا بد من الإشارة إلى أن حوادث السيارات، خصوصًا تلك التي تحصد أرواح الكويتيين، هي من أكبر الأرقام في العالم).

المهم أن هذا الشخص (س) طلب مني في رسالة مقتضبة مكونة من عدة أسطر، أن أرسل الملفات بعد قراءتها إلى شخص أثق به يمكنه الاحتفاظ بها في مصر؛ «نظرًا للأهمية القصوى لذلك»، وأظن أن من الأمانة أن أفعل ذلك، على الرغم من أنني غير متأكد ما إذا كان علي سليمان هو الذي تركها أم غيره.

هل أفعل ذلك على الفور أم أنتظر لأتدبر الأمر؟

أظن أن هذا ما عليَّ التفكير فيه خلال الأيام المقبلة.

(سأشرح لكِ الموضوع –يا ضُحى– بتفصيل أكبر، ربما في الرسالة التي سأكتبها لكِ مع الملفات).

(ف)

النَّاجون من حادث الطائرة

١ ـ سليمان جوهر– فني الأجهزة:

«واو»، وقام من السرير الأبيض غير مصدق أنه لا يزال على قيد الحياة، ولو كانت لدي قدرة على التعبير عما جرى لسطرت ملحمة، وأخذته رجفة وهو يتذكر التجربة، كان المقعد يطير بي ويلف ويدور فلم أحتمل، وأخذ نفسا عميقا وهو يضع يده على جانب فخذه المكسور، لا، لم يحدث هذا، لم أسقط من ارتفاع ثلاثين ألف قدم، لا، لم يحدث، لا بد أن هذا كان حلما.

وراحت الصحف وقنوات التلفزيون والمجلات تصف الموضوع باعتباره معجزة، معجزة لم تحدث من قبل، وقال كاتب عمود في صحيفة الوطن العربي إنه لا بد من الكشف عن قدراتي الخفية، تصور، وقال إن بإمكان العرب الاستفادة منها في تحقيق أحلامهم المستحيلة (من قبل تحرير فلسطين أو الوحدة العربية أو أي من هذا اللغو الذي يجعلني أحس بالرغبة في التبول على العالم)، ومع ذلك فإن أحدًا لم يتحدث عن كيف ولمَ سقطت الطائرة أصلا،

ورفع ساقه الوارمة وأسندها إلى الفِراش، ووجدوني ملقى على شاطئ الخليج بجوار سمارة، مربية الأطفال التي بدا أنها تعلقت بي لأنقذها ونحن نرفرف في الهواء، وقالت إحدى الصحفيات إنه لا بد من استغلال هذه الحادثة لعمل قصة روميو وجولييت، أو قيس وليلى طائرين في الهواء هذه المرة، وأخذت أسأل عن هذه الجولييت فإذا بها من الجنس الثالث، هكذا أكد لي الطبيب المصري الذي كان يعالجها، وقال إن هذا ما جعل السيدة الكويتيية التي تعمل عندها توافق عليها لأنها لم تجد فيها خطرًا على مستقبلها مع زوجها، وراح يتحرك مرة ثانية تلبية لرغبة الطبيب، كيف يمكن لي أن أصلح الأجهزة وأنا على هذا النحو، مكسّر، مضعضع، تهتز يدي من الخوف الذي لا يزال ممسكًا بتلابيب نفسي، ورفع يده إلى أعلى ليتأكد من أنها لا تزال تعمل، هذه الآلة لا يجب أن تتوقف، وإلَّا سيكون مصيرك بيت العجزة، هذا إذا وجدت واحدًا يؤويك بالمجان، لا، سأقاوم، قال الطبيب بأن نصف العلاج يأتي من رغبة المريض في الشفاء، طبعًا أرغب في الشفاء، مَن يريد أن يظل عاجزًا، ومَن يعرف ربما جاءت جولييت فعلًا، هبطت علسَّ من السماء لتخفف عني بلوايَ، مَن يعرف، وعاد مرة أخرى إلى الفراش، وتمدد متمنيًا أن ينام.

٢- سمارة- مربية الأطفال:

وأفاقتْ من غيبوبتها المتكررة وهي شبه متأكدة من أن مستقبلها في الكويت أضحى على كف عفريت، نعم، أنا أعرفهن، كيف تبقى أم نواف عليّ وأنا أعرج؟ قال الطبيب إنني في حاجة إلى الراحة، ولا بد أن أم نواف ستجد مَن يعمل مكاني، لا رحمة في الموضوع، ألم تقلها لي والإنفلونزا تعصف بي، قالتها بالمصري: «هوا أنا فاتحاها ملجأ يا روح امك؟»، لم يكن ينقصها إلا أن تفرش «الملاية» وتردح، وهنا على أي حال ردح من النوع الثقيل، الكلمة كالحجر الصوان تسقط على «نافوخك» فتجرح روحك، وتحركت بصعوبة إلى نهاية العنبر، روائح المرضي الهنديات والباكستانيات والفليبينيات تملأ المكان، روائح هي خليط من العطر الشعبي الرخيص والتوابل، جلست في الحمام وهي تهيئ نفسها لقبول المفاجأة، لا بد أن أم نواف ستأتي وفي يدها تذكرة السفر، «حتفنشني»، وضحكت على الكلمة- البشعة التي لها طعم العلقم في حلوق المستخدمين- التي كانت تسمعها وظنت أنها ستكون بمنأى عنها حتى نهاية العمر، لقد هيأت نفسها لذلك، لم يكن لديها أحد أو شيء يدفعها للعودة، وكان كل شيء يوحي بأن الحياة ستسير على هذا النحو، لم تقصّر في عملها، وكل ما في الأمر أنها أرادت أن تطمئن على شقتها في القاهرة، تدفع الإيجارات المتأخرة واشتراكات الكهرباء والتلفون وخلافه، ليتها لم تذهب، لم تسافر، لكن القدر، الذي حملها

مسؤولية كونها عاجزةً عن أن تكون امرأة كاملة حتى يتربص بها من جديد، وأم نواف معذورة على أي حال، ماكينة العمل لا بد أن تستمر، فهي بعد أن اعتراها الخوف من أن يتركها أبو نواف في أي لحظة، ويتزوج بفتاة صغيرة (مصرية أو لبنانية) قررت أن يكون لها «بزنزها» الخاص، اشترت عمارة تؤجر شققها للمقيمين واحتفظت بطابق كامل كمكتب، لا أعرف بالضبط ما يتم فيه، لكنني أسمعها وهي تتحدث في التليفون بالأرقام التي تصل إلى الملايين، أبو نواف هو أيضًا يعمل في البزنس، وأظن أن عمله مرتبط بالبورصة بشكل ما، ما لي أنا وهذا، لم أتدخل أبدًا في شؤونهما وهو ما جعلني ذات حظوة عندهما، وقامت بصعوبة ومشت إلى سريرها، البنت الفلبينية رمقتني بطريقة توحي بأنها ربما تكون قد كشفت سري، لا، يا سمارة، لا تفكري في ذلك، فهذا هو الخطر بعينه، لا تضيفي همًّا آخر على همك المقيم، أنت كبت رغبتك طوال عمرك، فلمَ تريدين الآن؟ لا، المشكلة أن الأولاد سيوحشونني، أنا ربيتهم كأبنائي، عوضتهم عن غياب الأبوين، وعوضوني هم عن كوني عانسًا بلا زوج أو أطفال، ماذا ستقول شيماء ابنة العاشرة وهي التي لم تكن تنام إلا وأنا جالسة بجوارها على الفراش حتى تغفو؟ وماذا عنك يا نواف، أيها الصغير الحبيب، كيف لي أن أتحمل بكاءك وأنت تودعني؟ وأنتِ يا دانة، أيتها الشقية التي لا تكف عن الحركة، مَن سيتحملكِ مثلي وأنتِ لا

تكفين عن محاولات تخريب كل ما تقع عليه يداكِ؟ أنا أعرف مصيري على أي حال: امرأة، نصف امرأة، لا ينظر إليها الرجال، وحيدة في شقة مظلمة، بلا أحد، ربما سأموت ويتعفن جسدي حتى يلاحظ الجيران رائحتي، لكنني لا أزال حيةً على أي حال، لحظة أن كنتُ أصارع الموت في الهواء كان كل فكري في أن أنجو، وهأنذا نجوت، بضع كسور لا تضيف شيئًا على عجزي الآخر، كوني من هؤلاء الذين كتب عليهم أن يعانوا الغربة، غريب الدار ع الدوار..، ياه، حتى الأغنية لم أعد أذكرها، نسيت الأغاني أنا التي لم تكن تكف عن الغناء، كم من الليالي قضيتها وأنا أغني لشيماء، عبد الحليم حافظ وفايزة، لكن يبدو أن زمني مع الغناء قد انتهى، أنا نفسي..

ومددت جسدها على فِراش المستشفى الذي لم تكفَّ عن إحساسها بأن آخرين كانوا يتمددون عليه حتى رفعوهم من فوقه، إلى.. وأخذتها غفوة طويلة، كما يمكن أن يكون الموت قد جاء.

٣ ـ د. علي محمود– أستاذ الجامعة:

وراح منذ الحادثة يخلع ملابسه ويتطلع إلى جسده العاري في مرآة الدولاب بحثًا عن الآثار الخفية، لا يمكن أن تكون هذه الآلام مجرد أوهام، حالة نفسية كما قال الطبيب، وقالت الممرضة إنني تحدثتُ في غيبوبتي عن غموض سقوط الطائرة المصرية في أمريكا

(التي أنا متأكد –ككل المصريين– من أن صاروخًا ضربها)، وألقيت خطبة عصماء عن النسيان الذي لفلفوا به حادثة طائرة سلوى حجازي، مَن القاتل هنا وهناك؟ ويا تُرى مَن كان معنا على الطائرة مستهدف بهذا الانفجار؟ الحقيقة أنه لم يكن هناك انفجار، وإنما سقوط مدوٍّ على شاطئ الخليج، الجزء الأكبر من الطائرة غرق في الماء وأخذ معه مائة وأربعين شخصًا، ولم يبق سوى الخمسة الذين سقطوا على الشاطئ، أنا واحد منهم، وعاد ينظر إلى جسده ويعجب من أن شيئًا لم يصبه، لا بد أن «الرضوض» في الداخل، لا بد أنها ستظهر بعد وقت، ربما هناك نزيف بطيء في عضو من الأعضاء، نزيف خفيف لن تظهر آثاره إلا بعد وقت، ومشى إلى الصالة حيث سناء زوجته تتابع مسلسل يُسرا الجديد، الأولاد هناك في القاهرة، كانوا هنا حتى انتهوا من دراستهم الثانوية وكان لا بد من إرسالهم إلى القاهرة لإكمال تعليمهم، وأحس بالندم على أنه شارك في كتابة الأبحاث للطلبة مقابل نقود عبر مكتب يقوم بالسمسرة بين الطلبة والأساتذة، وأحس بالندم وبأنه ربما يكون هذا عقابًا، عليَّ أن أعي الدرس، تصور لو أنني كنت قد مت وأنا عاكف على كتابة أحد هذه الأبحاث، وكان من المستحيل عليه زحزحة سناء عن متابعة مسلسل يسرا، ومشى مرة أخرى ودخل غرفة النوم، ووقف بالقرب من المرآة، وخلع ملابسه مرة أخرى ليتأكد من ظهور الآثار، وأحس «بنغزة» في ظهره من الأعلى، في المكان

الذي لا يمكنه أن يراه، ونادى على زوجته، لكنه قطم النداء؛ لأنه يعرف أنه من المستحيل زحزحتها عن التطلع إلى يُسرا وهي تشهق وتبربش بعينيها، وتقول كيف يمكن؟ كيف هذا، وقال إنه كيف له أن يأخذ منها حقًّا أو باطلا وهي تعرف بأمر الأبحاث؟ وراح يتطلع بتمعن إلى جسده العاري، يدقق ويفحص، ويمعن الفحص، مرة بالنظارة ومرّة من دونها، غير مقتنع إطلاقًا بأنه خال من الجروح، حتى أصابه بالفعل نزيف داخلي نقلوه على إثره إلى المستشفى.

٤ ـ حنان– مدرسة الرياضيات:

«واو»، وراحت تنظر إلى أطفالها الثلاثة، وعلى الرغم من الشقاء الذي تُعانيه في تربيتهم، إلا أنها لم تكن تتصور كيف سيكون حالهم وقد اختفت، اختفت في الفضاء ولم يبقَ منها شيء، ولا عضو واحد، ومن حسن حظها أنها تركتهم مع والدهم لأسبوع واحد، كان والدها على شفا الموت، وكان لا بد لها من أن تلقيَ عليه النظرة الأخيرة، ولكنه قام بسلامة الله بمجرد أن رآها، كان يحبها لدرجة العشق وكان في شوق لأن يراها، ابنتي الوحيدة التي تركتني مقطوعًا كشجرةٍ وحيدةٍ في البرية، ما الذي أفعله؟ كيف لي أن أعود قبل أن أكمل أقساط الشقة وثمن العربية ومدخرات تساعد في تربية الأولاد؟ هه؟ قل لي كيف يمكن قبل ذلك، أن،

وتكتشف أنها بدأت تتأثئ، وهي فرصة جاءت ويمكن ألَّا تتكرر، فرصة واحدة في العمر يمكن ألَّا تحدث مرة أخرى، وقالت لها طبيبة السيكولوجي إن هذا من تأثير الصدمة، ولم تتخيل أن امرأة أخرى تقوم بتربية أولادها، حمادة ونوسة وفيفي، يا ولاد، أن أن، طبعًا سيتزوج، وسيكون له الحق، كيف لرجل أن يتدبر أمر ثلاثة أطفال أكبرهم في التاسعة، ونوسة لا تزال تلبس البمبمرز، وعلى الرغم من وجود الشغالة كانتي السيريلانكية إلا أن أنفاسه انقطعت لمجرد غيابي لمدة أسبوع لمجرد أنه يراقب ما تفعله كانتي بهم، وأخرجت مرآة يدها الصغيرة من حقيبتها التي تجعلها بالقرب منها دائما، لا لشيء، إلا ليكون بإمكانها إخراج هذه المرآة الصغيرة، ولا يمكن لها حتى الآن أن تتحرك إلا للضرورة، أصابها شرخ في الحوض، وكسر في الكتف، فهي ترتدي قميصين من الجبس، وأمامها ما لا يقل عن شهرين لتتعافى، وراحت تنظر في المرآة لترى ما إذا كانت هناك تجاعيد أخرى قد ظهرت، ولأن هناك تجاعيد كانت تعرفها، إلا إنها تصر على أنها لم تكن بهذا القدر من الوضوح إلا بعد الحادثة، والحمد لله، وكان من المفروض، على الأقل، أن يتحول شعرها إلى اللون الأبيض دفعة واحدة، ولكن لم تظهر حتى الآن سوى شعرات قليلة هنا وهناك، كما لو أن القدر قد اختار لها أماكن بعينها، ولكن الخوف منه (هذا الرجل) بدأ يقلقها، وأحست بأنه يتباعد عنها، يتركها بالساعات، يتشاغل

عنها بشغل إضافي جديد، أو يروح يتابع الإعلانات في الصحف، ولم يعد يتحدث إلا عن الأشياء، الغسالات، والثلاجات، والسيارات الفارهة (التي لم يكن يحب سماع إعجابها بها)، الخوف إذنْ بدأ يتسرب، وماذا أفعل إذا لم يكن بإمكاني أن أنام معه، أنا نفسي في شوق لأحضانه ، وحاولت أن أرضيه بطريقة أخرى، ولكنني رأيت نظرات الشك في عينيه، ماذا سيظنني؟ عاهرة، ابنة ليل متخفية في ثوب امرأة فاضلة، مربية، ويا للألم، الألم من هذه الأفكار بدأ يصبح أشد من ألم الكسور والجروح، الألم من كل جانب إذنْ، من الداخل والخارج، كما الخوف، يحيط بها من كل اتجاه، الخوف هو العدو الكبير للبشر، لها هي بالذات، ورفعت المرآة فرأته يطفو كموج لا يكف عن الدوران حولها من الداخل والخارج، ومن فوق وتحت، فراحت في إغماءة أخرى.

٥ ـ صلاح مرعي– الصحفي في قسم السياسة الدولية:

ورفع يده إلى عينه المصابة، ولم يقتنع بعد بفكرة أنه سيضطر لتغطيتها بعين صناعية، واستبعد طبعا غطاء عين موشي ديان، إنه أكثر البشر كرها إلى نفسي، وتذكر المحقق الذي قال له بأن يكف عن هذه الأفكار، عن أن كل شيء مؤامرة، فقد كان حادثًا عاديًّا من آلاف الحوادث التي تحدث كل يوم، وقد حاول كثيرا أن يستبعد المؤامرة، لكن كل الدلائل التي رآها كانت تدل على أن

هناك شيئًا ما، غموض الكلام عن عدد من الدبلوماسيين الذين كانوا على متن الطائرة، لمَ لم يعد يتحدث عنهم أحد؟ بعد المرة الأولى اختفوا من الصورة، لم نعرف ما إذا كانوا قد نجوا أم ماتوا، حين سألت لم أجد سوى نظرة باردة، قال لي المحقق إنه ليس شغلي، وعليَّ أن أفكر في نفسي، أنا أفكر في نفسي فعلًا حين أتساءل كيف كانت الطائرة تسير على ما يرام، والركاب يتناولون طعامهم بنهم، ثم فجأة يعلن الكابتن –على غير العادة– أنه سيقدم هدية للركاب الأعزاء، الذين كانوا جميعهم مصريين (هل هذه صدفة؟)، وكانت الهدية فيلم عادل إمام الإرهاب والكباب، (فهل هذه صدفة أيضًا؟) وفي اللحظة التي يهدد فيها بطل الفيلم (أقصد عادل إمام) بإلقاء أنبوبة البوتاجاز، وبينما يرفعها أحمد راتب ليلقي بها، في هذه اللحظة بالذات، نسمع الانفجار، الذي كنا نظن أنه حدث في الفيلم، فإذا به حدث في الطائرة، ويقولون لي إن هذه صدفة أيضا، أي صدفة فجة، هل هناك صدفة إلى هذه الدرجة؟ وراح يعيد شريط الفيديو الذي أذاعته القناة الفضائية المصرية عن الحادث، ولاحظ للمرة الألف تناقض البيانات والأرقام في تصريحات الذين تحدثوا في الشريط، حتى القتلى تباينت أعدادهم، المذيع يقول إنهم مائة وخمسة وتسعون، ومسؤول مصر للطيران يقول إنهم مائتان وثلاثة، على أي حال متى كانت أعداد القتلى مهمة؟ في أي حادثة جاءت الأرقام مضبوطة؟ حتى في الزلزال الكبير سمعنا

الأرقام بشكل مختلف، هذا يقول بالآلاف، والآخر يقول بالمئات، ورفع يده إلى عينه المعطوبة، وفي كل الأحول سيكون عليك أن تواجه العالم بعين واحدة، وهل ستستطيع أن تتقدم لخطبة سناء وأنت على هذا النحو؟ أظن أن موقفك أصبح ضعيفًا، سيكون عليك، بافتراض أنها تمسكت بوعدها لك بالزواج، وهو ما أشك فيه كثيرًا، أن تقبل أي شروط يُمليها أهلها عليك، بإيعاز منها أو من أي شخص منهم، يدافع عن مصالحها المستقبلية، هذا إذا بقيت وفية على العهد، مع أنك لاحظت تغيرًا في لهجتها، في نبرة صوتها، وأنت تحدثها في الهاتف، بعد الحادث، حتى «حمدًا لله على السلامة» رأيتها مفتعلة، من وراء القلب، وسيكون عليك أن تبحث عن أخرى، من ذلك النوع الذي يحب العطف على الآخرين، فتاة من النوع «الأمومي» الذي يحب التضحية من أجل الآخرين، وسيكون عليك أن تبقى ابنًا لها طوال عمرك، تدللك متى شاءت، وتنهرك أيضًا في أي وقت.

وسحب الغطاء على جسده محاولًا أن ينام.

* * *

(ف)

الناجون من حادث الباص

١ ـ صالح سعد– نجَّار مسلح:

ورفع رجله الصناعية من جواره، بجانب السرير، وأدخل ما تبقى من ساقه داخلها، وراح يربط أحزمتها الجلدية، ووقف، والمفروض أنه (كما قال له الأطباء) استعاد عافيته، وأن عليه الآن أن يعود لممارسة حياته من جديد، وأخذته رجفة المفاجأة، وكيف لي أن أتسلق السقالات لأرتفع عاليا إلى الطوابق العليا، كيف لي أن أعمل في سقف يرتفع عن الأرض عشرات الأمتار، وتذكر أنهم (هؤلاء الذين عملوا معه في كل مكان، في مصر والكويت) يسمونه العنكبوت، فقد كان يلتصق بالجدران كما لو كان تلك الحشرة، وأبدًا، أبدًا، لم تهتز له قدم ولا ساق، لم يحس بالخوف يومًا من تسلق الأعالي، فكان يعتبر وجوده في الأعلى هو الأساس، ووقوفه على الأرض لمجرد استعادة الأنفاس، لمجرد أن يملأ «التنك» بالبنزين ويعود للتحليق، وأحس، وهو يتحرك في اتجاه المطبخ، بأنه ما كان يجب أن ينجو من الحادث، كان يجب أن تنتهي قصته مع تطوّح الباص ثم انقلابه، وارتفاع الصراخ مع أصوات قرقعة تحطم جسم المركبة، أو حتى حين جرى الانفجار الكبير (الذي

أحرق جثثًا بحيث تفحمت وساحت مع بعضها البعض فلم يعد بالإمكان تمييز هذا من ذاك) على هذا النحو ليس لي أي لزوم في هذه الدنيا، بلا ساق أنت لا تصلح للتحليق في الأعالي، وكيف لي، بعد هذا العمر، بعد خمسة عشر عامًا أن أبحث عن عمل آخر، أن أقتطع من مميزتي جانبًا، وفكر في أنه قد تكون هناك جهة ما، جمعية خيرية تتبنى مثل هذه الحالات، مثل حالته، أين يذهب ليسأل؟ إلى مَن يمكنه أن يلجأ ليجد عنده الحل، هل سيستطيع قبول وضعه الجديد، مثلًا أن يقبل العمل على الأرض، هو النسر المحلق في السماء، أن يقف إلى «البنك» ويفك المسامير عن ألواح الخشب، كأي صبي مبتدئ، هل سيمكنه أن يعيش بما يدره هذا العمل الصغير، هل ستتحمل نفسه مثل هذا الوضع، لا، لا بد من أن هناك حلًّا، المهم الآن أن يقرر بينه وبين نفسه، ألَّا يقبل، بخصوص هذه المهنة أن ينزل عما كان عليه، وأن يجد شيئًا آخر، ربما كشك لبيع السجائر والمرطبات، وربما في صنعة الحشيش، آه، هذا هو الحل إذنْ، أن أذهب لعلي، موزع الحشيش (الذي كنت أشتري منه لاستعمالي الشخصي) وأطلب منه أن يعتمدني موزعًا معه، لكن هل سأضمن أن يعتمدنى وأن يثق فيَّ؟ ألن يتهرب مني؟ هو الذي يشك حتى في أمه، كما قال مرارًا، وراح يفك أربطة رجله الجلدية، لأنام قليلا، فربما جاء الحل بعد قليل من الراحة.

٢ ـ سليم الراعي– حارس بناية:

وتابع حركته في العنبر وهو يرمق النوافذ بجانب عينه اليسرى، وبدا عليه الاشمئزاز من منظر القضبان الحديدية المغطاة بالسلك السميك الذي بالكاد يرسل أشعة خافتة من الضوء، ولم يكن قد اقتنع بعد بوجوده في مستشفى الرعاية النفسية، بين هؤلاء المتعبين، الذين يؤدون حركات متباينة، الأمر الذي جعله يكرر طوال أسابيع: نحن في سرك، في سرك، حتى انتقل بعد أن اشتد عليه الخناق، وأدرك أكاذيب الأطباء (والممرضين والأصدقاء الذين حملوه عنوة إلى هنا)، هؤلاء الذين حاولوا إقناعه بأن الأمر لن يستغرق سوى «عدة أيام»، انتقل إلى عبارة أخرى لازمته فترة أخرى: أنا تعبان؟ لا. أنا تعبان؟ لا. وكف عن مبادلة أي شخص أي كلام، خاصة المرضى الذين كان يستخف بحركاتهم (الصبيانية)، (خاصة ذلك الشاب السوري أبيض الشعر الذي كان يقف على يديه طوال الوقت)، وحين تأكد من أن الرجل الهندي بدأ في أكل أصابع يديه بالفعل، بدأ يردد عبارة أخرى راح يكررها بلا ملل: أنا نفساوي، أنا، أنا نفساوي، لا. ويعقب ذلك بفاصل من الأصوات المتراوحة بين أصوات البقر، وأصوات الكلاب، أصوات العصافير وأصوات الذئاب (وراح يسأل الآخرين عن صوت الدب: كيف هو صوت الدب؟ هه؟ هل تعرف صوت الدب، الدب كيف يصوّت؟)، ثم حين يأتي الغروب يبدأ في ضحك ممزوج بالنحيب حتى يسقط

على الفراش ويبدأ في الشخيييييير، ولأنه كان قد عمل منذ وصوله إلى الكويت (وعلى وجه التحديد منطقة السالمية) حارس بناية، فإن أصوات أحلامه كانت تنتهي بكلمات متداخلة عن الشقق، وأرقامها، عن السكان، والزبالة، والخادمات، عن المدامات اللواتي لا يكففن عن التذمر، سيارتي وسخة، من خدش السيارة، لمَ لم تطلع لتأخذ الزبالة؟ لكن كل تلك الشكاوي (التي كانت تبدو مرة ساعتها) بدت الآن حلمًا بعيد المنال، اشتاق لو أن المدام سعاد، المدام سعاد بالذات، لأن كفها عريضة، لو أنها صفعته على خده فألقت به فوق برميل القمامة.

٣ ـ فاطمة محمد– كوافيرة:

شوهت النيرات وجه فاطمة، حتى إنها لم تعد تستطيع النظر (هي نفسها)، إلى هذا الوجه المجعّد، فبدا أن كل شيء في حياتها قد انتهى، الحلم بجمع أكبر قدر من المال من محل الكوافير الذي تستأجره من إحدى الكويتيات، لتتمكن من العودة إلى مصر وافتتاح محل كوافير، في منطقة راقية (المهندسين على وجه التحديد)، هذا الحلم قد انتهى تماما، إلا إذا حدثت معجزة، وتمكنت من فتح المحل، واستئجار كوافيرات للعمل معها، لكن ما استطاعت ادخاره لا يكفي ربما لاستئجار محل في بولاق الدكرور، وماذا في بولاق الدكرور، بنات بولاق الآن يعملن في البنوك والأوتيلات، في

محلات كانتاكي وهارديز، وأقلهن تعمل مربية أطفال في بيوت الممثلات ساكنات المهندسين، بنت صباح (مثلًا) تعمل عند سناء بدر مربية وتتقاضى ٨٠٠ جنيه، وتذكرت أغنية وردة الجزائرية التي كانت تكررها مرارًا، لكنها لم ترددها منذ الحادثة «خليك هنا بلاش تسافر»، وأحست برغبة حقيقية في الغناء، لكنها خشيت من أن يظن ابنها صلاح أنها ربما تكون قد جنت، لكنها، على أي حال، أحست بفرح داخلي غريب، وقامت (كالمجنونة فعلًا) وأخذت تلملم حاجياتها وقد قررت أن تسافر عائدة، الآن لو أمكن، وتذهب إلى بولاق الدكرور، إلى بيتها الذي هناك، وسوف تجد محلًّا رخيصًا، وبما أن عندها أغلب الأدوات، فإن كل شيء يمكن أن يحل، ستجد شريكًا، أو حلًّا آخر، كأن تبيع مصاغها، وحتى كل تلك الأدوات التي يمكن أن تعوضها من المحل، الثلاجة والتلفزيون ٢٢ بوصة الملون ماركة ناشيونال، وكل تلك الأواني والأباجورات التي اشترتها وخزنتها في بيتها هناك في بولاق الدكرور، وجاء ابنها صلاح فوجدها في هذه الحال، فإذا بها تأمره بأن يلملم أشياءه، سنعود إلى مصر، سنعود حتى لو أمكن مساء اليوم، صلاح بدوره غمرته موجة فرح، سيذهب إلى بولاق ليلعب في الشارع مع أقرانه، سيلعب كل الألعاب التي يحبها، فليس هناك مثل هذا الحر الذي يمنع الأطفال من اللعب في الشارع، وراحت تغلق الحقائب واحدة بعد الأخرى، وسبت وردة الجزائرية وأغنيتها

بكلمات بذيئة، فنظر مصطفى إليها وانفجر في نوبة من الضحك.

٤ ـ مصطفى علي– مطرب جوال:

بعد إفاقته من الغيبوبة مباشرة، وبمجرد أن استطاع فتح فمه، وبعد أول وجبة طعام أكلها بشكل شبه طبيعي (أي استعمل فيها يديه وأسنانه، وليس عن طريق المحاليل) حاول أن يعود لترديد أغاني عبد الحليم حافظ، لكنه فجأةً أحس بأنه قد نسيها جميعًا، هو الذي لم يكن يفعل شيئًا آخر بنفس إخلاص ترديده لأغاني العندليب الأسمر، هو الذي كان يرتدي ملابس تشبه ملابس المغني الشهير، ويقص شعره بنفس طريقته، ويحاول طوال الوقت أن يكون نحيلًا كما كان عبد الحليم، بل إنه، وبمرور الأيام، استطاع أن يقلده في مشيته، ويعبر بوجهه، الذي اكتسب نفس شحوب وجه المطرب الراحل، عن الألم المبرح الذي راح يعانيه طوال حياته، هذا الشاب الذي كان على هذا القدر من الإخلاص، فجأةً، وبعد إفاقته من الغيبوبة يجد شريط دماغه وقد مُسح تمامًا من أي أغنية، حتى تلك التي كان قد رددها آلاف المرات.

قام فزعًا، كالمجنون تمامًا، وراح يبحث عن المجلد الذي خط بيده فيه كل أعمال عبد الحليم، حتى وجده (وقد ظن للحظات، أنه ربما فقده هو أيضًا)، لكنه، والحمد لله، وجده، في مكانه، تحت الفراش، من ناحية الوسادة، كما كان في مكانه، هنا، دومًا،

وفتحه على عجل، فوجد الأغاني مكتوبة بخط يده، ولم تمسح، كما مسحت من رأسه، فأمسك بالمجلد بيد، وضم يده على فمه وقبض عليه بقوة، أنا ضعت، ضعت تماما، كيف لي الآن أن..؟ لكن هذا لا يمكن، لا يمكن، أن، طيب، حاول، ووجد أنه من الممكن، لو أنه، قام وارتدى ملابس عبد الحليم، ولو أنه سبسب شعره بطريقة العندليب (أي أنه لو عاد كما كان قبل الحادث) فربما استعاد الأغاني في ذاكرته، ربما عادت إلى ذهنه وانسابت بنفس السهولة التي كانت تنساب بها من قبل، وهكذا فهل..؟ قام وارتدى ملابسه الكاملة، بما فيها الكارفات العريض، وجاكيت البذلة ذات الكول العريض أيضا، تلك التي يُفضِّلها خصيصًا عند آخر ترزي يمكنه أن يقوم بتفصيل مثل هذا الموديل في منطقة السيدة زينب كلها، ووضع الفازالين في شعره، ومشّطه بنفس الطريقة، ورأى نفسه في المرآة، فوجد أنه قد استعاد هيئته، هيئة حليم الكاملة، وفتح نوافذ غرفته المطلة على ميدان حوالي، وراح يفرك يديه، ويتنحنح، لكنه تذكر أنه ربما يساعده كوب من اليانسون، وهذا ما فعل بالضبط، ذهب إلى المطبخ، وعمل كوبًا من اليانسون، رشفه بنفس الطريقة التي كان يرشف بها حليم كوب اليانسون، وبعد أن انتهى، وقف في وسط الغرفة، وها، حاول، لكنه لم يستطع، لم يجد أي شيء في..، في ذاكرته، أم نفسه؟ في روحه أم فؤاده؟ ليس هناك أي شيء، حتى ولو مجرد

اللحن، لا الكلمات ولا اللحن، ضاعت كل تلك الأغاني التي كان قد رددها آلاف المرات، لا بين نفسه ومعها، بل في مئات المقاهي، وعشرات المطاعم، في آلاف الحفلات التي أقامها في البيوت، والديوانيات، وفي المخيمات أيضًا، لم يبق منها أي شيء، مسحت تمامًا من رأسه.

أمسك بالمجلد وفتحه: «موعود بالعذاب يا قلبي»، طيب، كيف كان اللحن؟ أين هي النغمة؟ أين بقية الكلام؟

طارت؟

كل شيء طار،

لا،

الحياة إذنْ لا تستحق أن تعاش،

وقام فعلًا وجاء بالموسي، وقطع شرايين يده اليسرى، وتأكد من أن الدم يسيل، وتمدد على الفِراش وهو في كامل مظهر العندليب: الأفضل أن أنتهي وأنا هنا، هكذا، في هذا المظهر، لأنني لا أستطيع أن أحتمل الفضيحة.

٥ ـ علي حمادة– سائق خاص:

على غير ما كان يخشى، فإن إصابة علي حمادة جعلت مستخدمه «أبا فهد» يوليه عناية أكبر كثيرًا من تلك التي كان يوليها له قبل الإصابة، تلك التي ذهبت بعضوه الذكري فأعجزته، ولم يعد له

سوى ماسورة مقطوعة من الجلد، تمكنه بالكاد من التبول، رعاه حتى خرج من المستشفى، (حتى بدا وكأن علي قد رأى الفرح في عينيه)، طبعًا لأن السائق الخاص، في أي بيت،كان مثار شك صاحب البيت، خاصة إذا كان في البيت فتيات مراهقات، ونساء متروكات أغلب الوقت (ضمنهن طاهية فلبينية لا بأس بمؤخرتها، وخادمة سريلانكية تود أي رجل)، يقوم السائق بتوصيلهن هنا وهناك، الأمر الذي يجعل من رجل مخصي نموذجا فريدا يتمنى أي رجل، يعول مثل هذا العدد من النساء، أن يحظى به، ليكون مطمئنا تمام الاطمئنان على نسائه، حتى من أي غواية تدور في نفس هذه أو تلك، لأن أي امرأة أو فتاة، وبمجرد أن تعرف بأن هذا الرجل مخصي، فإنها ستستبعده حتى من خيالها، هكذا حتى من الخيال؟ الأمر الذي تأكد لعلي وهو يسمع أبا فهد وهو يردد بصوت مسموع لساكنات البيت (ابنتيه المراهقتين وزوجته والطاهية والخادمة) بأن علي قد أصيب (المسكين) وأصبح مخصيًّا، وشرح للبنات الموضوع بالتفصيل، وانتهى من الموضوع، ثم عاد وأكد لعلي بأن عمله محفوظ، وأنه لن يتخلى عنه بسبب هذه الإصابة، بل إنه منحه علاوة حتى لا يفكر في ترك خدمته، وأرسل إليه، مع الخادمة السيريلانكية بندرانيكا بجهاز تلفزيون ملون، بدلاً من الأسود والأبيض الذي كان عنده في غرفة السائق الملحقة بالبيت من الخلف، حتى إن علي استغرب قدوم باندرانيكا إلى غرفته،

وجرأتها في الدخول إلى عمق الغرفة، وهي التي لم يكن مسموحًا لها من قبل بالاقتراب منها، بل إنها كانت تنادي عليه وهي واقفة على السلم الخلفي دون أن تجرؤ على نزول الدرجات المؤدية إلى الملحق، فقال علي: سبحان مغير الأحوال. لكنه، على أي حال، اطمأن على أن مستقبله أضحى مضمونًا، حتى ولو كانت الحادثة قد أصابته في مقتل.

٦ ـ سلوى– ممرضة:

في الظاهر، من الظاهر، لا يمكن رؤية أي أثر للحادث في جسد سلوى الممرضة في مستشفى مبارك الكبير، لكنها أُصيبت في جسدها من الداخل إصابات بالغة جراء حروق أكلت جزءًا كبيرًا من فخذيها وخلفيتها إلى ما بعد سرتها ببضع سنتيمترات، وهي لأنها ممرضة في مستشفى مبارك الكبير، خدمت هنا عشر سنوات كاملة، فقد خصص لها الأطباء، وأغلبهم مصريون، غرفة خاصة بها، وأولوها عناية فائقة، لكنها سمعت أنها وبمجرد انتهاء علاجها سيتم منحها مكافأة نهاية الخدمة، مما يعني أنها ستعود إلى مصر، وأنها لن تستطيع ممارسة عملها كممرضة بعد الآن، لذا، فإنها اشترت آلة حاسبة صغيرة وكراسة وقلما، وراحت تشغل وقتها بحساب ما ستخرج به من أموال من عملها، ثم راحت تحسب المصاريف الضرورية التي سيكون عليها إنفاقها لترتيب حياتها

الجديدة، سيكون بإمكانها الحركة، لكن ليس كما كانت، سيكون بإمكانها العمل، لكن ربما ليس نفس العمل، سيكون بإمكانها العودة إلى زوجها وأولادها الثلاثة الذين تركتهم مع زوجها، لكنه لن يكون بإمكانها أن تعود زوجة كاملة أو أمًّا خالصة، سيكون عليها أن تتدبر أمورها بطريقة مختلفة، وأنها من الممكن، بالاستعانة بملكة الصبر، التي تعلمتها من مهنتها كممرضة طوال سبعة عشر عامًا، تداوي الجرحى وتأخذ بيد المتألمين، تسند الغائب عن الوعي، وتحمل الجثة بعد موت صاحبها، سيكون عليها، وهي التي عرفت بالصبر أن تستدعي أكبر قدر من الحلم وتستعين به كي تستمر في الحياة، وهي، على أي حال، لن تفكر، مجرد التفكير، في أي عواقب، وسيكفيها، ربما، أن ترى أبناءها وهم يكبرون، ويحصلون على شهاداتهم، أن يتزوجوا وينجبوا أطفالاً، وتصبح جدة تداعب أحفادها وتضحك في وجوههم، سيكون عليها أن تجد حلًّا لزوجها، ربما زوجة تنتخبها هي بنفسها، تختارها له من بين معارفها، على أساس أنها تحب هذا الرجل، وأنه بالإمكان أن تقبل وضع الزوجة السابقة، ولأن هذا سيحدث بمحض اختيارها، وأنها هي التي ستدبر الموضوع، فلن يكون مؤلمًا كما لو حدث بشكل آخر، بالشكل الذي يحدث عادة حين لا تصبح المرأة قادرة على أن تكون زوجة تلبي رغبات الرجل المعتادة، نعم، ستقوم هي بذلك.

لكنها فكرت في كل النساء المحيطات بها، فلم تجد امرأة

يمكنها أن تتعايش معها وهي على هذا النحو، فكرت في قريباتها ومعارفها فلم تجد، فقالت: لكنني لا بد أن أجد امرأة لزوجي، بدلًا من أن يقوم هو بذلك، لأنه سيكون عليها، في هذه الحال، أن تنام كل ليلة ودمعتها على خديها.

٧ ـ صلاح والي– كهربائي:

لم يصب صلاح والي بأي شيء جراء الحادث، حتى ولو خدش صغير في يده (بالضبط كما حدث للأستاذ الجامعي في حادث الطائرة)، ساعتها، بعد الدوي الكبير، وبعد تناثر الأشلاء وجوانب المركبة، الكراسي، والحقائب، الإطارات والقوائم، واشتعال الحريق الذي انتهى بصوت الدوي ذاك، قام من الأرض، ونفض الغبار عن ملابسه وراح يتحسس جسده، فلم يجد أي أثر، في الوقت الذي نظر حوله فوجد أشلاء متناثرة، وأجساما تشتعل فيها النيران، فأحس بالهول، لذا لم يصدق أنه لم يصب بأي خدش، وانتهز فرصة وجود أول دورة مياه دخلها، وبسرعة خلع ملابسه ووقف عاريًا يتطلع إلى جسده، يتحسس أعضاءه عضوًا عضوًا، فلم يجد أي شيء، لكنه راح في دهشة لازمته منذ تلك اللحظة ولم تُفارقه حتى الآن، وبطريقة لا إرادية كان يتحسس يده، أو قدمه، ساقه أو فخذه، ليتأكد، ولا يجد شيئا، لكن تلك الدهشة ظلت في نفسه، حتى إنه فكر في الذهاب إلى طبيب، ليخلصه من هذه

الحال، ولأنه وجد الجميع يشكون من الأطباء، راح يقاوم هذه الرغبة، وظل حيران، بين رغبته في الذهاب إلى الطبيب، وخوفه من ذلك، وبين دهشته التي بدا أنها تتمكن منه كل يوم، أكثر من اليوم السابق، فوجد أن لا حل أمامه سوى الكلام.

أن يتكلم مع كل شخص يراه، في كل بيت يدخله لإصلاح الأباجورة، أو تركيب جهاز، أو مد الأسلاك، أنا على فكرة كنت في هذه الحادثة، أنا كنت في الأتوبيس الذي انفجر بعد دخوله الحدود الكويتية بلحظات، بعد أن أجرينا التفتيش، وكل شيء، أي والله، ألا تصدقيني، والله يا مدام أنا كنت معهم، ورأيت الهوايل، رأيت، يا ساتر الأرجل، وحتى الرؤوس، بعض الرؤوس، وكل ذلك، رأيته بنفسي، ورحنا نشيل الجثث، وذلك، ولكن الحمد لله، تصوري، تصور، لم أُصب حتى ولو بخدش، الحمد لله، أنا لي أولاد ينتظرونني في مصر، لي أولاد وزوج، ربما الله نجاني من أجلهم، الحمد لله، وغير مصدق حتى الآن أنني لم أصب بأي شيء، حتى ولو بخدش صغير، حتى إنني رأيت الغيرة (أو هل أقول الحقد) في أعين المصابين الذين ذهبت لزيارتهم في المستشفى، رأيت.. سبحان الله، هذه إرادة الله، الله أراد ذلك، لكن الحمد لله.

لكنه وبمجرد أن ينفرد بنفسه يجد نفسه وقد عاودته الدهشة، فيقف ويخلع ملابسه ليتأكد من أنه فعلًا لم يُصب بأي خدش، حتى إنه فكر في جرح نفسه، لكنه لم يجرؤ.

(باب)

في

ثياب المصور

عيناكِ تخترقان الحجب والملابس.
«تنشّن» على الأماكن الحساسة،
أنتِ خطر جدًّا.
عيناكِ تجعلانني أرتعش.

تذكرتكِ يا نُهى الآن على الرغم من أنني لم أفكر فيكِ كثيرًا طوال الشهور الماضية، تذكرت أنكِ قلتِ لي شيئا عن عيني، يا ساتر، أنت لا تفوّت شيئًا، يا ساتر، عيناك تخترقان الملابس، تنشّن على الأماكن الحساسة، أنت خطرٌ جدا، عيناك تجعلانني أرتعش.

قلت إذنْ لا بد أن تكون لدي موهبة فطرية في التقاط الصور، لم لا أستغل هذه الموهبة وأعمل لنفسي هواية أستطيع ممارستها، أتدفأ بها، تشغلني وأشغلها، سأشتري كاميرا وعدسات متنوعة الأحجام، وسأكتب إليكِ يا نهى، سأقول لكِ: أنتِ منحتِ حياتي معنى، بحيث يمكنني القول إنه أصبح لديَّ حياة جديدة.

صحيح أنني قد أبدو متخلفًا عن العصر الذي أصبح فيه الفيديو هو الأساس، إنما يكفيني اللجوء إلى كاميرا فوتوغرافية جيدة لأمارس بها هوايتي التي اكتشفتها من ملاحظة نهى، على الرغم من أن وجهها هو الذي نفرّني منها، فهو من النوع الذي يمكنك أن تنظر إليه من بعيد فتراه جميلًا، لكن ما إن يقترب منك حتى

تصاب بصدمة ولا تستطيع إطالة النظر، إنها كما يقولون ليست «فوتوجينك» على الإطلاق، مع أنها لا يمكن أن توصف بالقبح، مَن يعرف؟! خاصة شفتيها، ربما هذا شيء في الروح.

وسيكون هذا رائعًا؛ لأنني سأستطيع تسجيل الحوادث والناس، سيكون لديَّ ذكريات أحتفظ بها، ليتني فعلت هذا منذ وصولي، فرحلة الصحراء مرت دون تسجيل، لم أعرف لمَ لم يحضر أحدُهم كاميرا؟ ربما بسبب وجود نساء، وربما كان هذا ممنوعًا، ربما تمنعه التقاليد.

سأذهب بعد انتهاء العمل إلى السوق، لن أعود دون كاميرا.

(ف)

كان البائع الهندي رائعًا يا نهى، أجلسني على كرسي، وجلس قبالتي، وطلب أن أشرح له رغبتي ليعرض عليَّ بعض الحلول، حكيت له الحكاية، ورغبتي في أن تكون لي هواية جديدة، وكل ذلك الكلام.

قال لي إن اسمه جورج، وإن لديه كاميرا فاخرة ماركة لا يكا موديل ١٩٥٧ تعد تحفة لأنها مرقمة، ولكن لا ينصح بها لأنها غالية الثمن، كما أن لديه واحدة ماركة كانون، لكنه قال إنه يظن أن المناسب لحالتي هي هذه الكاميرا ماركة رولي فلكس، مع ثلاث

عدسات، واحدة وايد أنجل، والثانية 70، والثالثة 200 زووم للقطات البعيدة، وكانت هناك حقيبة جلدية فاخرة مبطنة بالجوخ الأخضر، وخرجت من المحل وأنا سعيد، سعيد جدا، فقلت في نفسي: هناك إذنْ أشياء يمكنها أن تجعل المرء سعيدًا، على الأقل في بكارة اللقاء مع الرغبة، كما يكون العشق في الأيام الأولى، أذكر أنني حين رأيتكِ يا نهى من النافذة رأيت فيكِ كل ما تمنيت في فتاة جميلة، كانت الرعشة تغمرني كلي من الداخل والخارج وعيناكِ كانتا، وأنتِ تتطلعين إليَّ من نافذة المطبخ الذي كنت أطل عليه من نافذة حمامي، تشعان ببريق الـ.. ماذا؟ كيف يمكنني أن أصف ذلك؟ وأن أول لقاء كان يفيض بالمشاعر، وكنت بعدها ألقاكِ وكلي شوق، حتى رحتِ تتحدثين.

ما إن فتحتِ فمكِ، خاصة حين تكلمتِ عن المستقبل الذي تبغيه من علاقتنا، مني ومن الأولاد وهلم جرا، راح شيء من.. لا أقدر أن أسميه، يظهر على ملامحك، حتى رأيت أنني لا بد وأن أركض هاربًا من مصير رجل مدجن، تضمينه في كفكِ الذي بدا خشنًا للغاية.

(طبعًا لا يمكنني أن أقول لها ذلك في الرسالة التي سأرسلها. طبعًا).

لا بد يا نُهى أن أسجل (كتابة) اللقطات التي سأعمل على التقاطها، حتى أكون على بينة من أمري، طبعًا من الممكن ألَّا أُوفق

في التقاط بعضها، لكن هذا لن يغير من أهمية هذه القائمة حتى لا أتوه، حتى يكون لدي دليل واضح للعمل، وما أجمل الخيال على كل حال.

-صورة حريق-

أحد بيوت خيطان التي يسكنها الصعايدة، عمال اليومية الذين جاءت بهم عصابات تجار الرقيق الأبيض (من الكويتيين والمصريين) باع البعض منهم ماشيته أو مصاغ زوجته (إن وجد)، وربما قيراطي الأرض اللذين ورثهما عن أجداده، ليوفر مبلغ الخمسة عشر ألف جنيه التي طلبها مدير مكتب التسفير، مقابل الإقامة، وعقد وهمي، ما إن يصل الواحد منهم للكويت، حتى يجد نفسه دون عمل، يجد نفسه في خيطان، يبحث عن بلدياته، وسيكون سعيد الحظ لو وجد واحدًا منهم، وتبدأ المعاناة.

من الإهمال، وضياع الخلق، يمكن أن يحدث أي شيء، الحريق المتكرر أمر اعتيادي في هذه البيوت.

سأتربص بحريق كبير يلتهم البيت بما فيه ومن فيه، لأسجل لقطة العصر، الأجسام المشوية تصارع النار.

-انتحار الخادم-

هذه أيضًا حادثة تتكرر مرة كل شهر تقريبا، خادمة سيريلانكية أو هندية أو فليبينية، يضيق عليها الخناق بعد أن تحس بالجنين ينمو في أحشائها، رجل البيت السكران، أو الشاب المتهور بعد جرعة معتبرة من الكوكايين، يجبرها على النوم تحته، ويفعل فعلته.

مع اليأس، والخوف، والضرب الذي تصطليه من أم أو زوجة قاسية لا تجد الخادمة مفرًّا من القفز من الشرفة أو الشباك، فتسقط جثة هامدة.

سأكون محظوظًا جدًّا يا ولاء، أقصد يا نُهى لو صادفتِ هذه اللقطة: الجسد وهو يرفرف في الهواء، في منتصف المسافة بين الشرفة والأرض، أرفع الكاميرا عاليًا وأصطاد الصورة المحلقة.

-عصابة المهربين-

مجموعة من الوجوه الكالحة بأعين زائغة: من مصريين على إيرانيين على باكستانيين على كويتيين ينظرون إلى اللا شيء، ضبطهم البوليس بعد مطاردات مضنية، ترى آثار الهزال على وجوههم ربما من شدة الإدمان، وأكوام من لفافات «طرب» الحشيش المضبوط أمامهم على الطاولة. تك ترك.

-أبو محمود-

أحس بالندم لأنني لم أكن أمتلك كاميرا لألتقط صورة هذا الكويتي الطيب يوم أن ذهبنا إلى البر.

كان يضحك وفي حالة مرح لا توصف، لا، لا يا نهى ليس لأنه رب عملي أقول ذلك، بل لأنه فعلًا رجل بدوي أصيل وطيب، سترين صورته وتتأكدين من كلامي، وسيحب طبعًا أن ألتقط صورته وهو يعد رزم الدنانير أمامه على المكتب، سيحب ذلك؛ لأنه يحب أن يجهر بنعم الله عليه. ستكون لقطة رائعة لا بد أنها ستثير خيال كل مَن يراها في مصر، وأظن أنه يريد أن يفور هذا الخيال في كل الدنيا.

-ط. ك-

كنت أعرف هذا الرجل، لأنه كان دائمًا يسافر إلى مصر ويحضر قبلها؛ ليسألني إن كنت أريد أن أحمله رسائل لأهلي؟ فكرت مرة أن أرسل معه رسالة لضُحى، لكنني خفت أن يكون هذا كمينًا (تعرفين يا ضُحى حساسية الموضوع)، لكنه على أي حال وبسبب زيجاته العديدة اضطر لكتابة شيك من دون رصيد، فحُكم عليه بالحبس سنتين مع الشغل والنفاذ وإبعاده عن البلاد.

كيف يمكن إبعاد مواطن كويتي عن بلده؟

يقال إنه ربما يكون بسبب أن مادة جنسيته هي الرابعة.

لكن وزير الداخلية نفى إمكانية تنفيذ هذا الإبعاد.

المهم في الموضوع، وهو ما يجعلني أضعه في قائمة الصور التي أتخيلها، ليس أي شيء يتعلق بقضيته، بل لأنه رجل ضاحك.

لم أرَ يا نُهى في حياتي رجلًا يضحك كل هذا الضحك، حتى إنني أجزم بأنني لم أره في أي مرة إلا وهو يضحك ويضحك، حتى لتكاد وجنتاه أن تنفجرا.

-صورة المول-

بالنسبة لبلد صغير الحجم، هنا يا نُهى عدد رهيب من المراكز التجارية الضخمة، لكن كلها كوم ومركز سوق شرق كوم آخر، سوق شرق لا يتمتع بميزة احتوائه على أفخر الماركات العالمية (الأمريكية والإنجليزية بالأساس)، لكن موقعه على شاطئ الخليج يجعل صورته، خاصة في الغروب، لقطة من الأحلام.

-صورة مكتب-

نعم، صورة مكتب تمت برشمته بالشمع الأحمر،كنت سأكون ضحيته، طلبني صاحبه للعمل عنده فترة ما بعد الدوام، أحسست بأنه يريد أن يستغلني، وأنني لست في حاجة إلى كل هذا الإرهاق، فيكفيني ما أقوم به في عملي، وفي صباح الخامس عشر من ديسمبر عام 1996 نشرت الصحف خبر إغلاق المكتب مع ثلاثة وثلاثين مؤسسة خاصة لقيامها بإعداد البحوث العلمية وبيعها لطلاب الجامعة نظير مبالغ مالية.

صدر قرار الإغلاق فور الانتهاء من حملة تفتيشية مكثفة قام بها مفتشو وزارة التجارة، وشملت عددًا من المكتبات والمؤسسات الفردية والمكاتب التي يُشتبه في قيامها بهذا العمل المحظور في

الكويت، نظير مبالغ يتم الاتفاق عليها بين المؤسسة والطلاب الجامعيين، وفقا لطبيعة البحث وموضوعه وعدد صفحاته.

جاء هذا الإجراء عقب قيام الوزارة بتنفيذ مسح شامل لجميع محافظات الكويت، رُصد خلاله عدد من المكاتب التي تتولى إجراء البحث بنفسها مقابل أجر يتراوح بين دينار وثلاثة دنانير للصفحة الواحدة، وقد يرتفع في بعض الحالات إلى ستين دينارا، إضافة إلى مكاتب ومؤسسات أخرى تقوم بدور الوسيط بين الطالب والباحث الحقيقي، نظير عمولة محددة، إلى جانب السعر المطلوب لإنجاز البحث.

-صورة شاعر-

بعض شعراء النبط هنا يا نُهى نجوم تتسابق الفتيات على التعلق بهم، وإذا كان من حظ الشاعر أن يكون وسيمًا فإنه يصبح موضوع صراع يصل إلى حد الاقتتال، واحد من هؤلاء هو حمد البغيلي، تعالي وشاهديه حين يُلقي أشعاره في هذا المكان أو ذاك، فقبل أن يحضر بساعات تمتلئ القاعة عن بكرة أبيها، تغص بآلاف الشباب (وفي بعض الأماكن،كالنوادي والمسارح، يمكن للفتيات الحضور أيضًا)، عندئذ تصل المسألة إلى حد المعمعة: صراخ يدوي، وتلويح بالمناديل الملونة، وأوراق صغيرة عليها أرقام التلفونات تتطاير

في السماء لتسقط على الرؤوس،..

معمعة يعني.

هذه صورة لن تفوتني بأي حال، سألتقطها حتى ولو كلفتني عشرة دنانير قيمة تذكرة الحضور؛ صورة للشاعر النبطي حمد البغيلي وآلاف المستمعين يتابعونه بشوق، وفي الخلفية آلاف الفتيات من عشاق شعره يتأوهن.

-سباق الهجن-

يصر جانب كبير من الكويتيين على التمسك بمظاهر البداوة تأكيدًا على الوجود، والتعلق بالتراث، بعض هؤلاء حتى يصر على إقامة بيت من الشَّعر في حديقة الفيلا، وبعضهم يقيم ديوانيته على هيئة خيمة بجوار البيت، ويصر هؤلاء على إقامة سباق الهجن الكبير كل عام، حيث يحتشد المتحمسون على جوانب مضمار السباق بالآلاف، وتنقلب الدنيا حين يفوز هذا البعير أو ذاك، ألن تكون صورة هذا المهرجان صورة رائعة؟

-حصان بعرف أشقر-

ما دمت سألتقط صورة سباق الهجن، فلا بد من صورة مضادة لسباق الخيل، وهذا يقيمه أهل الحضر كإثبات للوجود أيضًا، أو هكذا فهمت، هنا خيول غاية في الجمال، لو كان لي أن أحلم بما هو فوق الخيال، فإنني أحلم فعلًا بامتلاك أحد هذه الخيول الجميلة، ليته يكون بلون بني غامق وعرف أشقر الشعر، سأدعكِ يا نُهى تلعبين به فوق المروج الخضر.

-مظاهرة نسائية-

بين الوقت والآخر نسمع عن مظاهرة نسائية، نذهب لنرى فنشاهد مسيرة صغيرة لنساء (بعضهن منقبات، والبعض الآخر محجبات، والبعض يلبسن ملابس عصرية على آخر موضة) تتقدمهن الدكتورة رشا الصباح، وفوزية الخرافي مديرة جامعة الكويت، ويرفعن اللافتات التي تطالب بحق الانتخاب والترشيح، هل تتصورين يا ضُحى أن مديرة الجامعة ليس من حقها أن تنتخب ولا حتى أعضاء المجلس البلدي؟ مع أن أي شغَّالة في مصر من حقها أن تدلي بصوتها وتنتخب وحتى تتقدم لترشيح نفسها، صحيح أن عندنا فهلوة وألاعيب، لكن مديرة الجامعة، مديرة الجامعة سوء. سوء.

لا بد أن ألتقط هذه الصورة بأي شكل، حتى ولو اقتضى الأمر أن أبيت ليلي أمام مجلس الأمة، إلى حيث تنتهي المظاهرة، وربما لقطة أخرى للملتحين وهم ينظرون ساخرين من نوافذ المجلس، هؤلاء الذين أسقطوا قرار الأمير بإعطاء المرأة حقوقها، وراحوا يخيفون الناس بالجحيم (الغريب في الأمر يا ضُحى أن كثيرات من النساء يعارضن إعطاء المرأة حقوقها)، كما لو كنا في بلاد واق الواق، على الرغم من أنكِ تجدين فتيات يرتدين المني جيب، ويتمخطرن في سوق شرق الفخم.

-المتسولون-

نشرت الصحف اليوم يا نُهى خبرًا غريبًا، أقول غريبًا لأنني أولًا لم أكن أعرف أن هناك متسولين في الكويت، وثانيًا لأنه إذا كان هناك متسولون فهذا يعني أن هؤلاء محتاجون، فكيف يمكن أن يكون هناك محتاجون في بلد من هذه البلاد؟

ثم أن الأمر أقسى من ذلك، إذ إن العقوبة ساخنة أف. أح. نار. ن..

كتب: ز. أ:

لم يعد التسول في الكويت «مهنة» يمكن غض النظر عنها بعد أن تزايدت الشكوى من انتشار عدد محترفيها في شوارع وأسواق

العاصمة التجارية، وقيام البعض الآخر بالتجوال في المناطق السكنية، للدرجة التي أثارت قلقًا لدى الأهالي والمسؤولين أيضًا.

وللحد من هذه «الظاهرة»، تقدمت الحكومة بمشروع قانون إلى مجلس الأمة لتجريم التسول وإنزال عقوبات تصل إلى السجن لمدة عام كامل وغرامات مالية لا تتجاوز ١٠٠٠ دينار (٣٣٠ دولارًا) بحق مَن يتم ضبطه أثناء ممارسة التسول أو لمَن يحضُّ عليه.

وحدد مشروع القانون عقوبة لا تتجاوز ٥٠٠ دينار، أو السجن لستة أشهر لكل من أغرى شخصًا أو استخدم حدثًا أو سلمه لآخر بغرض التسول، وتتضاعف العقوبة على كل من كان وليًّا أو وصيًّا على حدث واستخدمه أو سلمه لآخرين بغرض توجيهه نحو القيام بالتسول.

مشروع القانون عرَّف التسول بأنه يشمل «العمل على استعطاف الناس في مكان عام أو في محلات إقامتهم أو أعمالهم أو تجمعاتهم، وكذلك استغلال الشخص لعاهة حقيقية فيه أو إصابة أو مرض أو قيامه باصطناع ذلك بنفسه لأجل استدرار عطف الناس بهدف الحصول على مال أو عطية من أي نوع كان».

أعتقد أن اللقطة المهمة في الموضوع ستكون ساعة إجراء جراحة لقطع طرف من أطراف الشخص مشروع المتسول في إحدى العيادات التي تعمل في الظلام.

مسألة صعبة، لكن يمكن الوصول إليها ببذل بعض الجهد.

-مخنثون من آسيا-

كنت أسير في الطريق فإذا بمجموعة من الفتيات يتمخطرن على تلتوار الطريق بطريقة فيها الكثير من الاستعراض، دخلن السوبر ماركت القريب من منزلي، فدخلت خلفهن، ما إن استدرن حتى فوجئت بأنهن مجموعة من الشبان المخنثين، ضحك البائع الهندي في وجهي وشرح لي الأمر (ربما ليداري خجلي؛ لأنه بدا وكأنه كشفني وأنا متلبس بمراقبتهن) قال إنهن يسكن في المبنى المواجه للسوبر ماركت، وقد يتسبب وجودهن في مشاكل لا حصر لها.

البائع الهندي الذي كان اسمه مصطفى قال إن الدنيا أصبحت عجيبة.

إنها عجيبة فعلا يا نُهى.

هل سأتمكن من التقاط هذه الصورة دون متاعب؟

-صورة مركب البوم-

أحد رجال الأعمال أراد تخليد ذكرى أجداده التجار من أهل الحضر، وهؤلاء كانوا يتاجرون عبر البحر، فصنع مركبًا ضخمًا على هيئة خاصة يسمونها هنا «البوم»، كلف صاحبه خمسة ملايين دينار، واستغرق العمل فيه خمس سنوات، وجاء بأخشابه من إفريقيا، والمعدات والصناع من الهند، وعمل منه مطعمًا سياحيًّا، صورة جميلة لجانب من المكان.

هذه ستروقكِ أكثر من غيرها يا نُهى.

-المنقبة-

صورة أتمناها (لو حققتها سأعتبر نفسي حققت معجزة) للمنقبة التي تحل المشاكل العاطفية للبنات في إحدى المجلات الأسبوعية، ويقال إنها في حياتها العادية ترتدي الملابس العادية، وإنها فاتنة الجمال.

أنا لا يعنيني يا نُهى جمالها، إنما السبق في التقاط صورتها، ومَن يعرف، ربما اشترتها إحدى الصحف، بمبلغ كبير من المال، عندئذ سأشتري لكِ عقد اللؤلؤ الذي تمنيتِ أن تقتنيه.

(ف)

أعترف لكِ الآن يا نُهى بأنني نادم أشد الندم على صور عديدة ضاعت مني، وكان يمكن أن تكون لها أهمية ربما أكثر من أي لقطة أخرى سابقة.

–صورة لزيارة الرئيس بوش الأب للكويت، وآلاف الكويتيين يستقبلونه ملوحين بالأعلام، مع العلم بأن خيال الناس شرَّق وغرَّب عن أطنان الذهب التي أهداها الكويتيون إلى الرئيس الأمريكي.

– حرق آلاف زجاجات الويسكي في الصحراء.

– صورة للرجل الذي باع للجيش أثناء حرب التحرير لفافة الخس بثلاثة دولارات.

– صورة ذلك الرجل الذي طالب في إحدى الندوات بحرق الكتب التي تحتوي على روايات زعم أنها شبيهة بالروايات الثلاث التي أثارت ضجة في مصر بعد منعها من التداول.

(باب)

في

ثياب الأيام

سأحمل كاميراتي إذنْ،
وأذهب إلى هناك،
حيث الأسرّة من جذوع الأشجار
والليل مرصع بالنجوم،
والأكل من العشب الأخضر.
سأذهب إلى هناك إذنْ
وستكون نزهتي اليومية بين شياطين الأشجار وساحرات الهوا.

(ف)

ما اليوم؟

لم أعد أهتم يا ضُحى بمسألة الأيام هذه.

لم يعد هذا يهمني، لقد اتخذت قراري بالرحيل إلى هناك، لذا فإنه لم تعد هناك أهمية لهذا، كل ما في الأمر أنني سأرحل بعد أسبوع من الآن، بعد أن اتخذت قراري في هذا الصباح وأنا أجد أنه لم يعد هناك معنى لاستمراري هنا، لقد اتخذت قراري، لا في مسألة بقائي من عدمه، بل في ما هو أهم من ذلك، أقول ذلك وأنا آسف أشد الأسف لكِ يا ضُحى، لن تكون لي تلك التي يسمونها «الأسرة الصغيرة اللطيفة المكونة من زوجة وطفلين» كما لم يعد في بالي سوى أن أبني غرفة من الطين فيها أقل القليل من الأشياء، وربما اخترت بقعة صغيرة من ضفة النيل الغربية، بالقرب من مدينة أختاتون، لتشييدها، إذا أمكن، وإذا تعذر ذلك فهناك نيبال، على حافة جبل، في قلب الغابة. في ثاميل، حيث طقوس الروح على درب الخلاص.

لقد وضعت احتمالين لحياتي حتى تكون الخيارات أمامي واسعة، ويمكنني عندئذ بلوغ ما أصبحت متيقنًا منه

خيارات حياة واسعة، نعم، لكن يجب أن تكون حياتي نفسها بأقل القليل، في أقل القليل، هذا، حقيقة، ما أرتاح إليه.

* * *

الأيام؟ نعم، فأنا الآن كمَن يقرأ في كتاب أحبه، لذا فإنه لا يتوقف أمام الجمل، قد يتوقف عند الفصول، لكن يبقى الفصل الأخير هو الأهم. لم تعد هناك أهمية للساعات إذن، المهم الآن هو هذه الأيام، الأيام السبعة الأخيرة.

كل ما أقصده هنا أن أي ساعة ليست بذات أهمية بقدر أهمية اليوم كله، إذا كانت الأيام قد أضحت محددة سلفا.

* * *

ماذا عن الرسائل؟ هل ستظل لعبتي الدائمة؟ خاصة وأنني على أي حال لن أعود إلى القاهرة في كل الأحوال وسيظل الجميع على مسافة مني سواء كنت هناك على ضفة النيل البعيدة، أو هناك على قمة الجبل في قلب الغابة، ولمَ لا؟ رسائل مستمرة، لا تتوقف عن الدوران، أقصد عن الاستمرار في النمو، إلى ما لا نهاية، ماذا يضر هذا؟

المهم أن أتجنب الوقوف عند الساعات، وأهتم بالأيام حتى ينتهي الزمن ويأتي الوقت. وقت الرحيل طبعًا.

اليوم هو السبت، وهذا على وجه اليقين، وغدًا الأحد، اليوم هو بداية الأسبوع، والسبت القادم بداية أسبوع جديد سأكون عنده في

المكان الجديد، وبإمكاني عندئذ أن أبدأ بداية جديدة، حتى ولو اقتضى الأمر أن أنسج قصة جديدة لحياتي كلها أختارها بنفسي، بمحض حريتي، وحتى اسمي نفسه يمكنني تغييره، على الأقل أمام الناس الجدد الذين سأُلاقيهم، وأظن أن اسم حسن الوزان يروق لي، فلأكن من السبت القادم حسن الوزان، وإن كان عليَّ أن أفكر في تبعات هذا الاسم للرحَّالة المغربي الذي أطلق عليه أهل الغرب ليون الإفريقي، فقد تمتع الرجل بقدرات لا يتوفر لي أي قدر منها؛ فأنا مجرد كاتب خطابات تجارية مملة في عملي، وكاتب رسائل لم يكتمل أي منها في حياتي الأخرى، على الرغم من أنني أحببت في هذا الوقت أو ذاك مَن كتبت له أو لها، ولم أُنْهِ أيًّا من الرسائل.

الأحد (صباحًا):

يخيل إليَّ أنني لكي أتخلص منها أو منه، أن أنهي رسالته أو رسالتها وأضعها في مظروف وألقي بها في صندوق البريد، أقصد حتى لا يظل هذا الأمر عالقًا في نفسي، ويمكنني في هذا الحال أن أتحرر من هذا الشيء.

ما فكرت فيه إذنْ بالأمس من عدم إعطاء الموضوع أي أهمية هو أمر قد يجرني إلى الاستمرار في الانشغال بما لا يجب أن أنشغل به أكثر من اللازم ، فالموضوع على أي حال لا يعدوا إتمام ما بدأت، وأضع النقطة الأخيرة، لا في كل رسالة على حدة فقط، بل

النقطة الأخيرة في الموضوع كله.

ماذا عن الذين سأتركهم هنا، أفراد الشلة مثلًا وغيرهم، وهذه الأجواء التي علق بعضها بروحي ولا شك، هل سأتركهم للنسيان؟

أظن أن التفكير في هذه الأمور المستقبلية سيلحق بي أفدح الضرر، لأترك كل أمر لحينه. هذا أفضل على كل حال.

لا أشك لحظة بأن ما أنا فيه نابع من كوني هنا، وبعيدا عن هناك، هنا حيث تجد نفسك في معسكر عمل، معسكر عمل ليس إلا، جاف وبارد، وهناك، حيث الروح الملتهبة، المعذبة، المتراقصة في المسافة بين الوهم والحقيقة، لذا فمن الأفضل أن تعمل كاتب روايات وأنت هناك، لأنك –مثلا– حين تتمشى في العصاري من بيتك في المنيرة، عبر شارع قصر العيني، مرورا بميدان التحرير إلى باب اللوق، وتجلس هناك على مقهى الحرية، فإنك تلتقي قصصًا مجسدةً، وترتطم بأجساد تسبح على الأرصفة، وتجد الحيرة، نعم، لكنك تكون قد اختزنت/ امتلأت، بعشرات القصص، عشرات الحكايا.

سأمتهن، إذنْ، حين أعود، مهنة الكتابة، على الرغم من أنني لم أجرب ذلك من قبل، لكنني أحس بأن مخزوني يكفي لعدة مجلدات، على الأقل لأتخلص من عذابات نفسي.

* * *

اكتشفت اليوم أن لي أعداء متربصين، أظن أن أحد أهدافهم أن أكف عن النظر بالطريقة التي يخافون من أن تكشف لي أشياء لا يودون أن أعرف عنها شيئا.

تصورت لوهلة أشكالهم على هيئة مخلوقات تمتد لحاها حتى الكروش، يخبئون وجوههم في أقنعة من جلد الماعز، ويرتدون في أفواههم أنيابًا تنزُّ بالدم، لكنني وجدت أنه لا يمكن أن تكون الصورة على هذا النحو من الفجاجة. لا. إنهم بشر عاديون. مصريون من الطبقة الوسطى، موظفون بيروقراطيون من النوع الذي يبدو للوهلة الأولى أنه.. ليس خطرًا على أي شخص، وبهذه الهيئة فإنهم يتواجدون في كل مكان دون أن يلاحظهم أحد (إنهم هنا أيضًا؟ ماذا يفعل مدير الحسابات علي مصطفى غير توفير كل فلس يمكن اقتطاعه من أي موظف فقير لصالح صاحب العمل؟).

من المؤكد أنهم في لحظة ما، لحظة بعينها، يتحتم عليهم الإعلان عن أنفسهم في هيئة مرتبة، سيرتدون الملابس الموحدة –اليونيفورم– وسيحملون الأسلحة خارجين للجهاد.

لكنهم الآن وقد تعلموا من الدرس تجدهم يستعملون ما يسميه أهل المذهب الشيعي «التقية»، أي أنهم هنا وهم ليسوا هنا.

يبدو أنني سأدخل في مرحلة أخرى من مراحل الدموع، فدون سبب ظاهر، أجد عيني اليسرى تنهمر بالدموع، تنزل منها كصنبور ماء خرب، لا يمكن إغلاقه، ففي المرة قبل الماضية،

ملأت كوبًا كاملًا في إحدى النوبات: ماء أبيض رقراق.

* * *

الأحد (مساء):

لم أستطع يا ليلى.. أف يا ضحى أن أجمع تلك الأصوات التي تناثرت من حولي، لقد راحت تطن في أذني بمجرد أن وضعت رأسي على الوسادة لأرتاح بعد يوم العمل الطويل، الآن بدت الأيام أطول مما لو كانت لقطات بطيئة (سلوموشن) في فيلم مصري حمضان، كانت الأصوات أكثر مما أحتمل (أظن أن هذه هي المرة الثانية التي بدأت الأصوات فيها تتلبسني) كانت أقسى مما يحتمله رأسي، كانت أصوات لا يمكن التمييز بين أصحابها، كنت كمن هو هائم لا يزال ينتظر المواعيد، لكنهم لم يكونوا يتكلمون لغة مفهومة، لا، ولا حتى لغة واحدة، كانت لغات عدة وهو ما ينبئ بالنذير، لم يكونوا يتكلمون، كنت أنا من يتكلم عنهم. لو أنني أردت يا ضُحى أن أرسم لكِ صورة للناس الذين رأيتهم في الرحلة، رحلة الأحلام على ظهر السفينة (هأ! ولا تقل سفينة نوح)، كيف سأصورهم إذنْ؟!

أنت في العادة تنسى الكثير من الوجوه، لكن بعضهم لا تنساه أبدًا (لا يجب أن أنسى من الآن فطالعًا أن في يدي كاميرا)، إنني أحاول جمع الشتات، لكن.. يا لها من أصوات رأسي تكاد تنفجر (وكيف لي أن أصور الأصوات؟) إنها هناك..

إلى مَن أكتب اليوم.. أقصد هذه الساعة؟

إلى ضُحى أم ولاء؟

للفتاة العصرية التي تتابع الأخبار وتلم نفسها في تايير معتدل الطول، وتتحدث بحساب كلما أمكن (حتى الضحك بحساب) تعمل لأنه لا بد أن تعمل، وأنه لا حل أمامها سوى العمل، ولأنها تخاف الأيام فإنها تتشبث بعملها، فلا أمان هناك، ومن الممكن ألَّا تجد الرفيق الدائم، وربما هي كذلك تفكر أيضًا أنها، مع الأيام، تفقد أنوثتها شيئًا فشيئًا، وإن كانت تحاول، بينها وبين نفسها، ألَّا يحدث ذلك، فتهتم بانتقاء ملابس داخلية مثيرة، وتهتم بيديها فتدهنهما كل مساء بالكريم، ولا تفوت ذراعيها وساقيها وقدميها وحتى ركبتيها، وتعتني بشعرها بقدر ما تستطيع كي تقيه الشمس والحر والغبار ودخان السجائر والعربات.

لكنني أظن أنني سأُصاب معها بالبرد بعد قليل من الوقت، سيأتيني البرد ويسكنني، سأحاول أن أتجنبها، أتوقف عن الكلام معها، أم أكتب إلى ولاء التي لا يهمها سوى مزاجها، أن يكون كل شيء مرتبطًا بهذا المزاج، وأهم ما فيه، أن تتغزل فيها طوال الوقت، وأن توفر لها ما تريد طوال الوقت، وأهم شيء تريده، ربما، سيجارة محشوة بالكيف، وكباب من «أبو شقرة» وحضن دافئ ينتهي بالفراش، ولا شيء آخر، لا شيء على الإطلاق، إلا ربما رغبتها في أن تنطلق فجأة في الرغي بلا هدف، تظل ترغي

وترغي بالساعات، ثم تُنهي كل جملة بضحكة فيها من السخرية والمرارة الشيء الكثير، وخارج هذا العالم ليس هناك شيء بالنسبة لها.

فهل سأظل –لو حدث وتزوجت ولاء– دافئًا طوال الوقت؟ ألن يدركني البرود؟ ألن أهرب منها إلى المقاهي؟ ألن أتمنى أن تكون قد نامت وأنا عائد إلى البيت؟

يبدو أنني، في الحقيقة، لا أعرف لمن أتحدث اليوم، يبدو أن لكل واحدة حلاوتها (ومرارتها أيضًا) إذن الحل في أن يكون لك أكثر من امرأة، تغضب هذه وتفرح تلك، أربع نساء هو الحل إذنْ، وربما هو حل لمشكلة العنوسة، كما جاء في حديث لشيخ الأزهر.

الأحد ليلًا:

جاء محمود الجزار (المليجي)، وأكد أن حصيلته اليوم من قصاصات الصحف كانت مهمة للغاية، إذ إن أستاذة جامعية (وصفها البعض بأنها تحب الشهرة) تحدثت باعتراف أثار ضجة في كل الكويت، أكدت فيه بأنها أجرت بحثًا علميًّا عن فتيات الجامعة، فوجدت أن الشذوذ منتشر بينهن إلى حد الظاهرة، قلت: ثم؟ قال إنه أمر لا بد سيشغل الصحف لمدة شهرين، قلت: تقصد سيشغل البلد هذه المدة. قال: أظن أظن. ويبدو أنه وجدني غير متحمس للكلام في الموضوع، فتركني ومضى، دون حتى أن يشرب قهوته المعتادة، لكنني وجدت في المكان الذي كان جالسًا

فيه قصاصة من صحيفة القبس عن توافد ٧٦ ألف مواطن ومقيم إلى قصر العدل في يوم واحد لتقديم دعاوي تعويضات ضد العراق عن أضرار لحقت بهم أثناء الغزو.

أثناء الغزو، بعد الغزو، قبل الغزو، هكذا أصبح التاريخ، هنا، يبدأ بهذه الجملة، وينتهي، أبدًا، فعلًا فكرة رهيبة، أن تستيقظ في الصباح فلا تجد بلدك، تقوم في الصباح فتجد ناتنياهو مثلًا سحبها من تحتك، يا ساتر! فكرة رهيبة!

* * *

ما الذي جرى؟

هل كان ذلك حلم يقظة؟

سأكتب إليكِ يا ولاء (أظن أنه آن الأوان لكي تستعيد الأقنعة، فولاء هي مديحة حمدي) حين أعرف التفاصيل، أظن أنه حان الوقت (وآن الأوان) لأن أكتب الرسالة الموعودة، (أنهيها بالأحرى)، وبالأحرى (نفسها) أن عليَّ أن أكتب رسائل، إلى ضُحى (سعاد حسني)- ولاء (مديحة حمدي)- نهي- بتريسيا، لا، باترسيا، لا، لن أكتب لها، وهي في الغالب سافرت، تركت مصر، ربما تكون هي الآن في ميلانو، تلعب في الوقت الضائع، أو في الوقت المضبوط (الإيطاليات على أي حال لا تنقصهن الحيلة) بنت الكلب وحشتني، ماميو، ماميو، طيب، لو أردت أنا الآن أن أعبر عن الرقص والتمايل في كلمة واحدة؟ تترامـ.ز لا، لا تنفع، تهتز، آه،

تهتز أفضل، تهتز كالمجداف، لا يا أخي، كالقارب فوق الأمواج.. أمواج؟ أي أمواج؟

أخذتني الحياة دائمًا على غرة، أقصد أنها سرقت الوقت والميعاد، ها هو الغروب مثلًا ينتهي، وأنت الآن في الليل، لا تقل البهيم، ابحثْ عن كلمة أخرى، العـ.. لا يهم، لست أول من أعجزته اللغة، المهم أن تكون حذرًا وأنت تكتب، خصوصًا لضحى، لديها رادار مصوب ناحية الكذب، قالت إن ذلك بسبب أنها عاشت في جو من الأكاذيب الأنيقة، المحكمة، ثم قالت إنني قد أكون الأخير؟ ما الذي كانت تقصده تلك الفتاة؟ قل لى بالله عليك يا طالعا فوق السارية، قل الحقيقة وامضِ يا هذا لعل كخ فخ متلاحف متهنعم وإنه وإن كانت هناك على الشرفة بنية قد حان قطافهاـ فهيا أخا العرب للامتزاج وارفع القناة عاليا فها هو الجمل يهجل على رمال الصحراء، وتلك الأباعير تسبح في الفضاء الخارجي على أسنة الرماح التي انطلقت على الرغم من الطوز والنوز ورطوبة الهواء التي تنز حتى تخنقك فلا تستطيع حتى إدراك انحسار مياه بحر الخليج الذي لوثته ملايين أطنان النفط الذي تفجر بفعل القنابل المتساقطة على السفن العابرة العائمة في الخليج صباح يوم الغزوة الكبرى، يوم البرابرة، اليوم المشهود الذي كتب بالدم على سطح البرية التي كانت النوق تتهادى عليها على امتداد البصر وتحت خفافها تسعى الحيات في سلام

لكن الطيور وجدت نفسها محتارة: أين تذهب وضجيج المركبات الحربية المثقلة بأطنان القنابل يفتت أجنحتها، أين.. الذين بشر بقدومهم العسكر وهم يدوسون بأقدامهم الثقيلة على أطراف عباءات البدو الرحل وهم يفرون في التوهة الكبرى يوم لم يعرف الابن أباه ولا المرأة بعلها وطارت رقاب الصغار والشيخ الذي سقط عقاله وطار شماغه يصرخ في البرية:

– يا ابن العم؟ يا أخا العرب؟

لكن طيور النورس كانت قد غرقت في أمواج النفط المهتاجة وهي تحمل تماثيل سوداء للطيور، انظر، الخوجاية العجوز الرسامة زوجة الرسام البدوي تمسك بالطائر الملوث بالزفت صارخة:

– هرام عليكم. هرام.

الاثنين– صباحًا:

استيقظت من الحر.

لم أفتح النور، كان الجو خانقًا بالفعل، ازدادت الرطوبة عن المعتاد منذ مساء الأمس، فشعرت أنني أغرق أو هو، هكذا، الشعور، ساعة، غرقك، في الماء، هل جربت الغرق؟

أنا وأنتِ يا ضُحى، نغرق عريانين، ننزل معًا متعانقين إلى الماء، ولا نتنفس.

آه، تذكرت سيمون.

كنت أعيش في شقة، في بيت قديم في شارع شبرا، وكانت سيمون، جارتي طبعًا قد تعلقت بي (ومن هذه اللحظة عليك أن تعتبر نفسك في فيلم مصري من أيام ستينيات القرن العشرين البهية) طبعًا، أولًا لحظات الكشف، نظرات مختلسة، تسبيل الأعين، ثم الجرأة (وفي فيلمنا هذه فإن البنت سيمون هي التي كانت أكثر جرأة، لأن أخانا الحبيب، رشدي أباظة، في شبابه الوافر، ريفي ساذج، طبعًا من أعيان الريف، والبنت سيمون، بنت مدينة، وليس أي مدينة، إنما مدينة القاهرة في الستينيات، ومن شارع فيها، وليس أي شارع، إنما شارع شبرا، الذي أنتج أشهر راقصات ومغنيات البلد (بل والعالم فلا تنسَ داليدا) فموعد فلقاء على محطة الأتوبيس، أمام بتاع العصير، ثم المشي في الشوارع الجانبية، حتى نطلع إلى النهر، نهر النيل طبعًا، فإذا بنا وسط حشد من العشاق الصغار الماشين على الكورنيش، يقزقزون اللب ويشربون الحاجة الساقعة- المحلية الصنع، وأظن أننا أيامها كنا نشرب الكازوزة- ليست تلك الكازوزة التي كانت تدعو لها سعاد حسني في أغنيتها الشهيرة -ولعلها شريفة فاضل- ثم الموعد التالي في الغرفة، وكانت سيمون تحب الهدايا، خاصة الحلقان والأساور الفالصو، وكانت تطلب كل مرة، قبل أن ترفع فستانها، دون أن تخلع ما بعده، خاتمًا أو عقدًا، لكنها كانت

تستاء، لأنني كنت، بعد أن أنهي حاجتي، أحاول التخلص منها، وهي تعرف، وقالت إن كل الرجال هم هكذا، وأعتقد أنها كانت صادقة، أين أنتِ الآن يا سيمون؟ طبعًا لن أكتب لضحى بذلك، وإلَّا...

الاثنين ظهرًا:

ها هو وافد جديد على الشلة، لو رأيتِه يا نهى، لما فرقتِ بينه وبين الممثل أحمد رمزي في شبابه، للأسف لن أتمكن من معرفته طويلًا، سأكتب به لعادل السيوي، ربما أفاده في إحدى رواياته، وسأرسل هذه الرسالة بالتأكيد، المهم أن أُنهيها، فقد بدا لي الآن، لا أعرف لمَ، أن إنهاء الرسالة يدفع بي إلى الراحة، المهم أن تكتب كل ما في نفسك، فالأمر لم يعد يحتمل، أحس بروحي مرتاحة، حالة انشراح غريبة تطفو داخلي، نعم، ربما هي الكلمة، كأنه حدث فجأة في الداخل، ثم شع حتى الجلد، أن أكتب أغنية، أغانيَ عديدةً، أن أصبح كاتب أغان.

كان أحمد رمزي قد جاء إليَّ في المكتب، فضجت الفتيات العربيات بالصراخ، ظنن أنه بالفعل أحمد رمزي، حتى «تشميرة» الكم، وقصة الشعر، ولوية البوز، لكن رانيا وحدها ظلت ثابتة على وقارها، وأحسست بالحرج وهو يتمرجح أمامها على الكرسي، فاتحا فمه بابتسامة تكشف عن أسنان ملمعة، يهز رأسه ولا يكف عن الحركة بقدميه، ثم يملّس على شعره الطويل «المسبسب»

الغارق في الفازلين، ينشر عطره الفواح، وصوته المتباهي بنبرة الغندور وطلته.

نسيت أن أقول يا نهى إنه وردت إلينا أيضا فتاة إيرانية من شيراز اسمها شاهيناز، أهلها هربوا من إيران بعد الثورة، وهي تربت في الولايات المتحدة الأمريكية، مذ دخلت المكتب والنار مشتعلة من نارها، ولأول مرة أرى رانيا على هذه الدرجة من الغيرة، ولكن الحقيقة تقال إنني أنا نفسي لم أستطع صرف ذهني عنها (حتى إنني استعملتها في أحلام يقظتي أثناء ممارستي للعادة، خاصة شفتيها المكتنزنتين الحمراوين اللتين مصصتهما بلا انقطاع حتى وصلت إلى)، المشكلة أنه مذ رآها أحمد رمزي وهو لا يكف عن استعراض حسده.

قلت له:

– هل تعرف من هي هذه الفتاة؟

قال:

– لا. لكن..

قلتُ كاذبًا:

– إنها إيرانية، ولا تعرف كلمة واحدة من العربية.

قال وهو يواصل النظر تجاهها:

– يا سلام! عز المطلوب! ومن قال لك إنني أريد أن أحدثها، ألا تعرف أنت أن هناك لغة أخرى أهم وأبقى؟

قلت:

– من فضلك نحن في مكان عمل، ولا تسبب لي مشاكل!

قال:

– طبعًا أنت كأي ذكَر شرقي تريد كل النساء لوحدك.

ويبدو أن رانيا سمعته فانطلقت منها ضحكة مجلجلة، ولحسن حظي أطل أبو محمود من مكتبه خارجًا لفسحة الظهيرة، وأعلن الجميع استقطاع وقت الغداء، فبدا الحزن في عينيه، ولاحظت أنه يغرس عينيه في خلفية شاهيناز بوحشية.

وتعمدت الخروج للغداء في أحد المطاعم القريبة، ومرة أخرى سيكون عليَّ تناول بريوني السمك، وأحسست بشوق لوجبة من يد سنية، تلك المرأة التي رعتني مذ ماتت أمي، لم تكن شغالة بالمعنى الدقيق، لمَ لا أكتب إليها لتجهز لي وجبة من الأرانب بالملوخية، وأرز مصري مفلفل، والباذنجان المخلل بالتوم، وربما محشي كرنب وقوطة وفلفل رومي وورق العنب، هذا هو الطعام الحقيقي الذي قال وول ديورانت مؤلف «قصة الحضارة» إن حروب العالم قامت من أجله، أين يا تُرى هذا الكتاب، الكتاب الوحيد الذي قرأته كاملًا، قرأته كله لأنني صدقته، كانت سياحتي عبره متعة لا تُنسى، لا بد أنه لا يزال في شقتي هناك في القاهرة، أرجو ألَّا تكون العثة قد عبثت به، سأحزن بقية عمري.

والتفتُّ خلفي فأجد أحمد رمزي لا يزال واقفًا أمام باب الوكالة، لا بد أنه يتحين فرصة خروج شاهيناز ليتحدث معها، فكرت أن أعود لأمنعه، لكنني لست بالضبط ذلك الرجل الشرقي الذي تحدث به، وشاهيناز على أي حال ليست فتاة هينة، ألم تمنعني، حتى في الحلم، من خلع ملابسها؟ إنها تعرف كيف تدافع عن نفسها، ومشيت حتى بائع الجرائد، واشتريت «القبس» ودخلت المطعم.

لا بد أن أصرف هذه البنت عن ذهني، مثلًا، عليَّ أن أؤكد، وأنا أمسك بالصحيفة بين يدي، أنني إنسان عصري، أف، أقصد مهتم بقراءة الجرائد، وأنني، منها، هذه الصحف، سرت في طرق عديدة، أثّرت علي، وعلى حياتي، مثلا، أنا أكتب هذه المذكرات، أقصد هذه الأشياء التي أكتبها، بالأحرى، هذه الملاحظات، أف، هذه الرسائل المجهضة، هذه الرسائل التي لا أرسلها، ولا أظن، (وهذه لحظة صدق حقيقية) أنني سأفعل، في يوم ما، فلقد قرأت موضوعًا في نفس جريدة القبس هذه عن استطلاع أجري في فرنسا، ونشرته صحيفة أيضا، أظنها الليموند، أو الليبراسيون، أو غيرهما، لا أذكر، عن الفرنسيين، أف، يا لي من مرتبك (البنت الإيرانية لا تريد أن تغادر خيالي، لا تريد أن تغادر نفسي، عيناها بالذات، لا، شفتاها) أقصد أن الموضوع كان استطلاعًا أجرته هذه الصحيفة أو تلك عن الفرنسيين وكتابتهم للمذكرات، ووجدت أن 60 ٪ منهم، أي الفرنسيين، يكتبون مذكراتهم، طبعًا أولئك الذين

يحسنون الكتابة، أف، أقصد أولئك الذين هم ما بين السادسة عشرة والستين، كتابة المذكرات أمر شائع إذنْ، لمَ إذنْ أخجل من أن يطّلع أحد على ما أكتب؟ آه، ربما لأنها رسائل، ياه، أنا متعب، متعب بالفعل، كيف سيمكنني العودة إلى العمل وأنا في مثل هذه الحالة؟ ما الذي سيحدث لو استأذنت، ادعيت المرض، أن مغصًا كلويًّا أصابني فجأة، أو ذهبت إلى المستشفى وتمددت هناك على السرير، وسلمت نفسي فعلًا للمرض، حتى يتمكن مني.

لكن، لا، فليس هناك الآن مَن يمكن أن يتعاطف.. أف.. أخ.. إتفو..

وبالفعل لم أعد إلى العمل، مشيت وركبت «وانيت» أوصلني للبيت، ومن هناك اتصلت برانيا وأخبرتها بأنني لن أحضر الفترة المسائية، وقلت لها ببساطة إنه ليس لديَّ مزاج لإكمال العمل هذا المساء، وتمددت على سريري غير عابئ بشيءٍ.

الاثنين مساءً:

استيقظت على صوت جرس الباب، يبدو أنه علي الأشول، لا بد أنه قلق بسبب أنه لم يجدني واقفًا أمام باب الوكالة ليوصلني كالعادة، ولا بد أنه عرف من رانيا أنني لم أحضر بقية اليوم، لا بد أنه قلق من أن أكون قد وجدت شخصًا آخر بدلًا منه، ومَن يعرف، ربما كان قلقًا من أجلي، قلقًا على حالي، لكنني لن أفتح الباب على أي حال، دعه يواصل رنين الجرس.

بعد فترة عاد السكون، ووجدتها فكرة معتبرة أن أظل في فراشي، في الظلام، لا أتحرك من السرير.

لكنني تحركت، أقصد أنني وجدت نفسي أجلس على حافة السرير بشكل تلقائي، دون أي إرادة، وانزلقت حتى جلست على الأرض، مددت يدي إلى علبة السجائر والولاعة وأشعلت واحدة، وخمنت أنه ربما نفذت رائحة الدخان إلى الخارج وأخبرت عن وجودي، لكن هذا لم يعد يهم، ما يهم الآن فعلًا، وأنا أهيئ نفسي لحياة جديدة، ستبدأ خلال أيام (على الرغم من أنني لم أقم حتى الآن بالتسوق، شراء الهدايا التي ينتظرونها مني في مصر) ما يهم الآن هو أن أجلس وأفكر في المشكلة، لمَ لم أُنْهِ أيًّا من الرسائل؟ لمَ لم أنتهِ حتى الآن من أي رسالة؟ لمَ لم أرسل أيًّا منها حتى ولو كانت ناقصة؟

هل بسبب أن حياتي نفسها معلقة، لم أستطع استكمال دائرتها المقطوعة، أم لأنني لم أكن قد رتبت أي شيء، وأنني سائر مع الخلق، خرجت مع حشد الخارجين مسلوبي الإرادة، أم لأنني أظهر في هيئة على غير حقيقة هيئتي.

أنا أعرف يا ضُحى أنني حساس جدًّا، أنتِ نفسكِ قلتِ لي ذلك، في نفس الوقت الذي يمكنني أن أقبل الأمور ببرود كبرود الصلب في الجليد.

أنا منظم جدا لدرجة أنني لا أطيق وضع كوب في غير مكانه،

كما أنني فوضوي لدرجة لا تطاق، حتى يمكن أن أضيّع مفاتيحي عشر مرات في اليوم.

كنت أودُّ أن أكتب إلى ضُحى بشيءٍ مهمٍّ للغاية، أو هكذا وجدته حين سمعت به، أقصد أنني كنت أود أن أسالها عن حقيقة ما جرى في مجلس الشعب، حول موضوع خطف السحب الذي تقوم به إسرائيل، هل حدث هذا فعلًا؟ وماذا يعني خطف السحب هذا؟ هل يعني أنهم سيربطونها ويجرجرونها إلى سمائهم؟ وهل سيتمكنون من إنزالها على رؤوس الإسرائيليين وحدهم؟ وماذا لو انزلقت ونزلت في الضفة الغربية مثلًا؟ لكنني أظن الآن أنه.. لا أعرف، ربما كان الأمر كله عبثًا، لا بد أنه كذلك.

الثلاثاء صباحًا:

استقبلني «أبو محمود» ووجوم كثير على وجهه، كانت سكرتيرته (ما اسمها؟) قد أبلغته برغبتي في السفر، لكنه قال لها بأن كثيرين من المقيمين يتحدثون بذلك لكنهم لا يفعلونه، حين رآني زم شفتيه، ربما لأنه رأى ورقة في يدي، وتأكد عندئذ بأنها «الاستقالة»، سألني إن كان هذا هو قراري النهائي، فأجبته بأن نعم، فوقع على الورقة وقد ازداد الوجوم على وجهه، وبصعوبة مد يده إليَّ لمصافحتي دون أن يقف من مكانه، على غير العادة، تأكدت من أنه غضبان، لكنه فاجأني بأنه أمر سكرتيرته (يا ألله

لمَ نسيت اسمها؟) بأن تعد لي حفل وداع طيبًا، شكرته وخرجت بصعوبة، كانت لحظة مؤثرة ولا شك.

الأربعاء صباحًا:

منذ التاسعة وأنا غارق في الإجراءات التي لا بد منها، لو تعلمين يا ضُحى كمية الملل التي واجهتني، حفل الوداع، تسليم العهدة، تسلم الباسبور، إلغاء الإقامة مع المندوب، تسليم البطاقة المدنية، وإلى آخره من الأعمال المملة.

الأربعاء ليلًا:

فكرت أن أخالف كل العائدين من المصريين، وألَّا أشتري أي شيء لأي أحد، لكنني ذهبت مع محمود الجزار وعلي الأشول في الرحلة الموعودة: رحلة التسوق، وأحسست بالفعل بأنني مخلوق استهلاكي على الرغم من حذري من أن أكون هذا الشخص، ماذا أفعل؟!

الخميس ليلًا:

في شقة علي سليمان، أقامت الشلة حفلًا صاخبًا بالأصوات، ملأت المكان روائح الشواء، شربت زجاجة كاملة من النبيذ الذي صنعه أحدهم (ربما هو علي الأشول) بنفسه، كان طعمه كالعلقم، لكنني أحسست بأنه لا بد من ذلك، وبالفعل نمت نومًا عميقًا لم

أَصْحُ منه إلا مساء اليوم التالي.

العاشرة من مساء الجمعة:

في بداية المساء حدث لي شيء غريب، لا يمكن تصديقه، لقد أحسست بالدهشة (كان شعري قد اقشعر، أعني رأيته بأم عيني يقف، يقف، ينتصب، لا أعرف) على الرغم من أنني كنت أظن أن هذا الشيء (الدهشة) لن يحدث لي مرة أخرى بعد أن صعقتني التجربة وألقت بي في هذه الغربة.

بصرف النظر عن أن كل أفراد الشلة، ومعهم عدد من زملاء العمل، قد حضروا لوداعي في المطار (لأنني في الحقيقة كنت شبه مغيب عن الوعي) بصرف النظر عن ذلك، إلا أنني كنت قد وطنت النفس على أن أسير في المطار دون أن أنظر خلفي. لا أعرف لماذا.

هأنذا (إذنْ) قد تهيأت للرحيل، أقصد، في لحظات الرحيل، نفسي آكل سبانخ من يد سنية، ولحمة (تسميها هبر) موزة محمرة في السمن البلدي، وأرزًا مفلفلًا، وسلطة بلدي، وعيشًا بلديًّا مفقعًا، وفلفلًا مخللًا، وطرشيًّا حرَّاقًا، وأشرب من القلة الساقعة وأنام القيلولة وأقوم في العصر أشرب الشاي بالنعناع، وأسمع عبد الوهاب وهو يغني»خي خي حبيبي القاسي ليه يا خي».

وعلى مستوى الواقع سأقوم بعمل مجيد، ساعة وصولي،على ما أظن، لأرض الوطن، سأقوم بعمل مجيد يشغل وقتي، سأعمل خريطة للمصريين، أقصد خريطة تبين مواقعهم في أنحاء العالم

(حيث أضحت هجرتهم حقيقة مؤكدة)، وسيكون عليَّ إذنْ أن أرحل وراءهم في بلاد الدنيا، أنا أعرف أنهم أضحوا منتشرين على امتداد الكوكب، وحين أنتهي من هذه المهمة سأكون قد فكرت في أي المكانين سأقضي بقية حياتي، هناك على ضفة النيل، في بيت من الطين، حيث أراقب الأسماك السابحة في الماء، أو هناك فوق أحد جبال النيبال حيث الجنيات الصغيرات يتمايلن مع الريح.

* * *